
حديث الشهر
الدكتور
محمد يحيى الهاشمي
الإمام الصادق
ملهم الكيمياء
٤



حديث الشهر

al-Imam al-Sadiq

الدكتور
محمد يحيى الهاشمي



الإمام الصادق

ملهم الكيمياء

— ٤ —

جمادى الاولى ١٣٦٩
شباط ١٩٥٠

مطبعة النجاح
بغداد

حديث الشهر

سلسلة كتب شهرية تصدر في مطلع كل شهر

صدر منها

١ ـ مثلهن الأعلى خديجة أم المؤمنين	الشيخ عبدالله العلايلي
٢ ـ أبو جعفر النقيب	الدكتور مصطفى جواد
٣ ـ دعبل الخزاعي	الاستاذ جرجس كنعان

الكتاب القادم ـ ٥ ـ

سكينة بنت الحسين

يقدمه الأستاذ :

توفيق الفكيكي

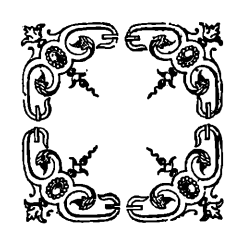
يصدر في مطلع الشهر القادم

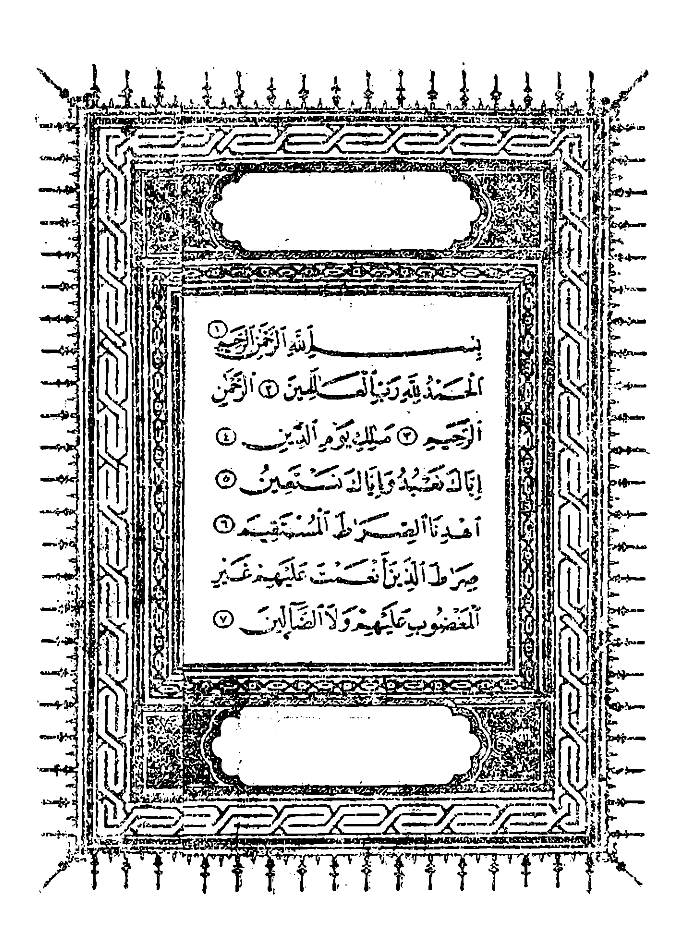
إلى القارىء الكريم

هدفنا الأول الذي نرمي إليه من وراء إصدار هـذه السلسلة هو نشر الحقائق العلمية والأدبيـة بشتى ألوانها وعصورها ولابد أنك قد لمست هذا في أعدادنا التي صدرت حتى الآن وسوف تتأكد من ذلك في أعدادنا القادمة . . . ومما لاشك فيه أن إقبال القراء وتشجيعهم سوف يحدو بنا الى العمل المتواصل والجهد في سبيل ارضاء القراء واشباع رغباتهم وسوف يفتح أمامنا مجالا للتحسين والتجديد

هذا وان مواضيعا ممتازة بأقلام أعلام معروفين في طريقها إليك خلال أشهرنا القادمة .

فالى اللقاء . . .




بسم الله الرحمن الرحيم ١
الحمد لله رب العالمين ٢ الرحمن
الرحيم ٣ مالك يوم الدين ٤
إياك نعبد وإياك نستعين ٥
اهدنا الصراط المستقيم ٦
صراط الذين أنعمت عليهم غير
المغضوب عليهم ولا الضالين ٧

بواعث اشتغالي

في تاريخ الكيمياء

تضافرت عوامل شتى ساقتني الى الاشتغال في تاريخ هذه المادة .

اولا : كان من المتعذر علي في كثير من الأحيان القيام ببعض التجارب ، اما بسبب العطلة او قفل المخبر ، او الانقطاع عن الدراسة او غير ذلك من الأمور .

ثانيا : تبجح زملائي الغربيين باساطين هذا العلم وما احدثوه من الانقلابات الفكرية في مفهوم هذه المادة وما اكتشفوه من عقاقير طبية ومواد صناعية هامة لا يمكن ان تستغني عنها البشرية في وقتنا الحاضر وطمسهم معالم ما ساهم فيه سلفنا · سواء كان ذلك جهلا منهم ام تجاهلا .

ثالثا : الصعوبات التي كنت القاهـا في دراسة هذا الفرع العلمي الشائك ورغبتي في الاطلاع على سير من سلك هذا المسلك الصعب من متقدمين ومتأخرين ، ليتبين لدي كيف اجتازوا هـــذه العقبات ، وكيف صبروا على ما لايكاد يطيق

الانسان عليه صبراً . وكيف وجـدوا الحيلة للخروج من المآزق الحرجة . وما هو سر نجاحهم وخذلانهم . وكيف لمع امامهم بريق كشف هائل اضاء لهم طريقاً جديداً مشى فيه آلاف الباحثين والمنقبين ، وما هي المعونات المادية والمعنوية التي كانت من نصيبهم (لأنه من البديهي الذي لا يحتاج الى برهان ان البذرة الطيبة لا يمكنها ان تنمو في محيط هدام) وما هو مصيرهم في اوطانهم وهل وجدوا تشجيعاً وتنشيطاً صادقين من اهلهم وذويهم ؟ ومن الذين اخذوا على عاتقهم - او اوكلت اليهم امتهم - ترقية العلوم وتنمية المعارف ؟ ومما لا شك فيه ان العلة الجوهرية في عدم تقدم هذا العلم في ربوعنا هو وضعنا السدود والحوائل امام اولئك الذين انتسبوا اليه ولم نعطهم قسطهم اللائق بهم في الحياة فكم وقفنـــا نحتقرهم ونزدري اعمالهم لانها لم تعـد عليهم بالنفع المادي . لذلك فلا عجب اذا كان نصيبنا من الحيـاة ان نجتر عيشتنا المملة الرتيبة دون ان يكون لنا روّاد يشقون لنا طرقاً جديدة في الحياة ، وان تكون المهن عندنا محدودة ونصيبنا من الصناعات الحديثة يكاد يكون معدوما ، ويكون حظ من يحاول فتحاً

جديدا في الحياة الفناء والاضمحلال . يقول غوته في هذا الصدد : « يا اخلائي ما لسيل النبوغ لا يطغي الا نادرا ؟ ما لذلك المجري لا يفور عالياً الا قليلا فيزعزع نفوسكم الدهشة ؟ اليس ذلك يا اخلائي لأن اولئك السادة الهادئين يقيمون على شاطئيه فيخافون ان يقذف لهم بساتينهم ومزروعاتهم الخصبة وحقولهم فيعالجونه بالحواجز ليهدئوا اثارة هذا الخطر المدلهم . »

رابعاً : معرفة الكنوز المعدنية القديمة ، فاني عندما اخذت ابحث عن المنقبين عن المعادن في ربوعنا وجدت منهم من اعتمد على مصادر عربية . وفي الحقيقة ان هذه المصادر تمت الى علم المعدنيات والجغرافيا بصلة قوية ، لأن الكيمياء على المفهوم القديم يقصد منها في الدرجة الأولى علم تحويل جوهر المادة من شيء الى شيء ، يتخللها طبعا ذكر خامات طبيعية وعقاقير منوعة ، وبعض التفاعلات المعروفة ولكن دراستي لهذه الوثائق افضت بي الى دراسة المعادن والجواهر تلك الدراسة التي استفدت منها شيئاً كثيرا . ومما لا شك فيه ان الغربيين قد سبقونا في هذا المضمار ، فانهم ما اهتدوا الى نفط

ايران مثلا الا بعد سماعهم عن العبادة الزردشتية وان الهياكل التى بناها المجوس كانت منارة بلهب دائم يصعد من الارض والسنة النار ترتفع عالياً ، لا يؤثر فيها مطر ولا هواء ، وان من كتب عن مناجم جزيرة العرب يعرف كتاب الهمداني لصفة تلك الجزيرة ، ولعل الذي ساق الأمريكيين لأستخراج الذهب من جزيرة العرب ما سمعوه عن اوقير بلاد الذهب التى يقصد بها تلك الاماكن ايضاً . وكذلك عندما أسس نابوليون بعثة علمية غايتها اماطة اللثام عن كنوز وادي النيل كانت مزودة بكتب قديمة عن هذه الكنوز .

خامساً : وجدت في تلك المصادر فائدة لغوية جمه ، ومع انها لا تفي بحاجة العصر ابداً ، ولكن من مطالعتنا اياها نستطيع الاستعانة بها لايجاد بعض مصطلحات عن خامات قديمة وعقاقير كانت مستعملة ، ولعله يسهل علينا عن طريق الاشتقاق ايجاد لغة علمية عربية صحيحة او قريبة من ذلك .

سادساً : الاطلاع بصورة مضبوطة على نظريات الاوائل ومعرفة درجة صحتها وخطئها والباعث على وضعها وكيفية تأثيرها في تطور هذا العلم البديع ولقد اخذت من تفكيري

فرضية وحـدة العناصر ونظرية الأكسير عندهم ـ التي سوف نتكلم عنها في هذه العجالة المقتضبة والتي لم يعط العلم عنها اللثام في عصرنا الحاضر ـ حيزاً كبيراً ، ومن الغريب في مشكلة الـكيمياء في المدنية العربية كونها ذات حدين : فمن جهة انها تجربية محضة تعتمد على المشاهدة الحسية والتجربة ومن جهة ثانية تعالج الفرضيات الـكبرى والنظريات الفلسفية العامة ، وان الصلة بين الحدين على ضوء العصر الحاضر هي ضعيفة ، فلم تكن النظريات القديمة مؤسسة على التجارب كما هو الحال في النظريات الحديثة ، بل ان عدة مشاهدات تبعث ـ قديماً ـ في الانسان فرضية كبرى تأخذ في تعليل كل ما تقع عليه الحواس في الـكون . ولا يمكننا ان نلوم علماء العرب الاقدمين في عدم تحررهم من ربقة الفرضيات السابقة للتجارب لأن ذلك لا يحط من قدرهم ، وما يدرينا (كما كنت بينت سابقاً في مقال عن الفلسفة الطبيعية العربية) لو اننا عشنا بعد الف سنة ودرسنا المستوى العصري الفكري اليوم لوجدنا فيه كثيراً من الفرضيات المسيطرة على العقول ايضاً فليس اذن في مقدور البشر التحرر دفعة واحدة ، فالتحرر لا يكون

الا تدريجياً ، ففضل حكماء المشرق اذن يكون كفضل حكيم مفكر في المساهمة في رفع بعض السلاسل المكبلة للفكر الحر فلا ضير اذن ان يوجد بجانب التدارب الواقعية من الطلاسم وسر الحروف وغير ذلك من الأمور التي لا تنطبق مع نظرتنا العصرية . ورغم كل ذلك فلهم فضل السبق في هذا الحقل فلولاهم لما تمتعنا بثمرات علم الكيمياء العصري ، وان كانت الشقة بعيدة والمسافة شاسعة . لأنه مهما ارتفعت الطبقات فان للأساس اهمية كبرى في تشييد صرح البناء الشامخ .

من الامور التي تلفت النظر في تاريخ العلوم مشكلة الامام جعفر الصادق (ع) وعلاقته الكبرى مع جابر بن حيان أبو الكيمياء في العصور الوسطى . ولقد تصدى الى هـــذا الموضوع عدد من المستشرقين والكيميائيين فلم يوفوه حقه لأنهم عالجوا المشكلة دون ان يكلفوا انفسهم عناء البحث في رسائل جابر نفسها مستقرئين الاقوال المنسوبة اليه مما لها علاقة مع الامام الصادق ، مبرزين ميزاتها وامكانية صدورها عن الامام . واننا في هذه الدراسة المقتضبة سوف نحاول ان نقوم في عمل هذا الاستقراء ، مستعينين بما وصل الى ايدينا

من المصادر التي نعترف بانها قايلة ، وذلك من نسخة كتاب الخواص منسوخة من المكتبة التيمورية في القاهرة اطلعنا عليها في معهد تاريخ العلوم في برلين ، ونقلنا منها مايهمنا في حينه ، وكتاب السموم أيضا من المكتبة ذاتها وفي نفس المعهد . وسنكتفي بما نشره (كراوس) في مختاراته عن جابر لعدم وجود مصادر اخرى في متناول ايدينا . اما كتاب السموم الذي نحن بصدده فلا يلقي لنا ضوءاً عن هذه العلاقة التي نود معرفتها ، وسنعتمد أيضا على الكتاب الذي نشره (هولميارد) الاستاذ الاول في علوم الكيمياء بمدرسة (كلفتن) في برستل) بانكلترة بعنوان : « مصنفات في علم الكيمياء للحكيم جابر بن حيان الصوفي » ، وسنشير الى كل اثر من الاثار في حينه . وانا لنأمل ان تتاح لنا الفرصة في العثور على جميع آثار جابر مطبوعة على اساليب الفيلولوجيا الحديثة لتمهيد دراسة أشد غزارة في هذا الموضوع ، ومن الضروري عمل دراسة عملية عن الامام جعفر الصادق (ع) ومكانته الادبية ودوره في التاريخ الفكري الاسلامي ، لتظهر لنا كثيرا من النقط الغامضة على ضوء النهار .

لا ادري أيضا هل أنا من الشاكرين او من اللائمين لاولئك الذين وضعوا العراقيل في وجهي للحيلولة دون تتبع ابحاثي في المخبر تلك الابحاث التي هي أحب شيء لدي، لأني أجد نفسي أقرب الى سر الوجود وعظمة الكون وانا ممسك لانبوب الاختبار من مطالعة بطون الكتب واضاعة الوقت بين القرطاس والمحابر ، ولولا تلك السدود التي وضعت أمامي لما برز هذا الموضوع المتواضع الى حيز الوجود . واذا كانوا يلومونني لاشتغالي في قضايا تاريخية محضة ، أجيبهم على ذلك : اذا كان هذا الحق للكيميائي الالماني والانكليزي والافرنسي وغيرهم ، فلماذا لايكون للعربي الحق في البحث عن تراث اجداده ؟ أم ان عقدة النقص تصل فينا الى حد لانقيم فيه اي وزن لمواطننا ولا نعترف له بأي فضل في هذا الوجود !

نعم ، انهم يضعون السدود في طريق تسير فيه ، ثم يلومونك ان سرت في طريق آخر ، وكأنهم يريدون ان يمنعوا عنا حتى ضياء الشمس والماء والهواء . انهم وايم الحق لجناة مجرمون وقوانين العالم لا تدينهم ، ولكن التاريخ شاهد عدل على ذلك ، يحدثنا عن فظاعات ارتكبت ضد العلم والعلماء تقشعر

منها الانسانية ، وقد لفظ التاريخ عليها حكمه وان عدت في حينها اصلاحا وعدلا ، ولعل أشنع جريمة اقترفت في تاريخ الثورة الافرنسية قتلها لواضع أساسات الكيمياء الحديثة «لافوازيه» الذي قال في حقه أحد أصدقائه : « لقد احتاجوا الى لحظة قصيرة لحز رقبتك ، لكنهم لن يستطيعوا انجاب امثالك في مئات السنين » ولقد كان المبرر لقتله ان الثورة ليست بحاجة الى العلماء .

يغيظهم الانتاج لأنهم قد بلوا بالعقم ، فاذا ماسدوا طريقا على الانسان كبر مقتا عندهم ان يفتح طريقا آخر ، لأنهم لا يودون الا الافناء ، فالخبث دأبهم وديدنهم ، والجبن وعدم الصراحة من شيمهم ، واللؤم والايذاء من طبعهم ، والفساد والنميمة من سلوكهم ، واخلاقهم اشبه بالقول المأثور :

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ عنك كما يروغ الثعلب

يفخرون بالتخريب والتحطيم ويجدون في البناء والانشاء عارا وذلا ، وهم المسئولون في الحقيقة عن التأخر المادى والمعنوي لدى الاجيال المقبلة .

ان تاريخ العلوم في الحقيقة مكتوب بالدم ، وانا اذ احاول

انارة نقطة غامضة في تاريخ الكيمياء ، فأنا اكتب بدم قلبي عن الابطال المجاهدين والضحايا البريئة والشهداء الابرار الذين قاسوا مرارة الحرمان والتعذيب في سبيل كشف الحقائق العملية وكانوا لنا مثلا أعلى فى البحث والتحري وازاحة النقاب عن الغوامض وجدير بنا ـ وان قدم العهد ـ ان نطأطىء لهم رؤوسنا اجلالا واحتراما .

حقا ان فى تاريخ هذا العلم كثيرا من الاسرار التي تحتاج الى من يسبر غورها ، وعساني اوفق فى اطلاع الرأي العام العربي الذي يهمه مجده السالف الآفل نجمه ، على تلك المناسبة الهامة بين أمام من ائمة الدين واحد أساطين هذا الفرع . علنا في بحثنا عن تراثنا التليد نشحذ الهمة لاعادة سابق مكانتنا في العلوم والتجارب ، فلا نكون مضرب الامثال في التأخر عن ركب الحضارة العالمي . وما ذلك على حنكة شيوخنا الافاضل وهمة شبابنا الاكارم بعزيز . ولا أنسى تقديم شكري الجزيل الى العلامة الفاضل الشيخ عبد الله السبيتي (العراق ـ الكاظمية) الذي اثار هذا الموضوع وحثني على كتابته .

وقبل الولوج في الموضوع نفسه نرى لزاما علينا ان

نتكلم عن الكيمياء القديمة وحث الاسلام على العلم وظهور الكيمياء ضمن المدنية الاسلامية .

الكيمياء في العصور القديمة

أن الكيمياء هي احدى فروع العلوم الطبيعية . موضوعها البحث عن مظاهر الطبيعة وايجاد المناسبات بين الحوادث . ويمتاز هذا العلم عن بقية العلوم في بحثه عن ماهية الاجسام .

لم تكن المعلومات التي حصلنا عليها عن المادة الا نتيجة اختبارات عصور طويلة ، لذلك فأننا لاشك نحسن صنعا اذا رمينا نظرة عجلى الى الوراء في تاريخ هذا العلم البديع .

ليست غريزة حب الاطلاع وحدها هي التي ساقت الانسان الى سبر غور الطبيعة ، بل الحاجة هي التي فتقت له الحيلة ، فالجوع والعطش والبرد والمرض وضرورة المسكن دفعه مكرهاً الى مزاولة خواص مايحيط به من الاشياء . وقد كانت هذه الحاجة عظيمة عند الاخطار المهددة ؛ لهـــذا فقد تطور في الانسان من ضرورة حفظ حياته والدفاع عنها علمه في المواد وخواصها العملية . ولعل اعظم اكتشاف قام به البشر اضرام

النار الذي يكاد يكون قديما بقدم البشرية ، لأن اقدم اثر عثر عليه الباحثون من آثار البشرية الاولى عثروا معه على احجار القداح المعدة لايقاد النار . ولا ندري كيف اهتدى الانسان الى ذلك ؟ فهل كان من قبيل الصدفة او انه تلقنه من النيران الطبيعية كالبراكين والصواعق وآبار النفط أم غير ذلك ؟

ان معرفة اشعال النار سهلت للانسان فيما بعد صهر المعادن كالنحاس والحديد من فلزاتها ، وبذلك قدر على استحضار الآلات التي تمكن بها من الاعراب عن وجوده فمن الصخور والاتربة اتخذ مسكنه ، ومن تدقيق عالم الحيوان والنبات عرف ـ عدا مايلزمه من مطعم وملبس ومشرب ـ السموم والاصباغ . وعمل من عصير العنب الخمر والخل ، فاستعمل الأول كمسكر والثاني لحفظ الاطعمة . وقد شعر الانسان بالتدريج ، وخاصة لدى تقدم المدنية وتوسع نطاق المعلومات بضرورة تدوين المعارف عن المادة والظواهر الطبيعية . ولما كثرت هذه المعارف أصبح من الضروري الاقتصار على قسم معين للتوغل في المعرفة وايجاد خواص جديدة غير معروفة من قبل .

لا تقدر ان نضع حداً عن اقدم المعارف الكيميائية ، وعلى ضوء التاريخ نرى الكلدانيين وقدماء المصريين عرفوا استحصال الكلس والفخار المشوي وبعض المعادن كالنحاس والصفر والحديد والرصاص والاثمد (كبريت الانتيموان) ، ومن الاصبغة استعملوا النيلة النباتية للتلوين بالازرق والحلزون الفرفري لصبغ الاحمر وهذا الاخير يعزى اكتشافه الى الفينيقيين . ولا بد من ادراك القدماء خواص الشب المثبت للالوان ، لأن الأثريين وجدوا بعض الوان لم تتبدل ، وتدقيق الجثث المحنطة دل على ان المصريين عرفوا استعمال الملح والشب ومواد اخرى لم يعط البحث العلمي اللثام عنها بعد . ولم يكن كهان مصر ليجهلوا السموم والعقاقير الطبية ، وينسب اليهم معرفة خواص الاثمد المقيء .

لم تصلنا ويا للاسف علوم المصريين القديمة لأن حدثان الدهر ابادها كما اباد كثيراً من العلوم والفنون ، ولكن الذي وصل الينا بعض معارف العرب ورثة كهان مصر وكثير من الامم التي اندثرت مدنياتهم . وبالرغم من معرفة اليونان القطر المصري حق المعرفة فانهم لم يلتفتوا الى الامور العملية الالتفات

اللازم . اذ كان معظم اشتغالهم في التأملات الفلسفية النظرية، هذه الحقيقة يعرفها الغربيون حق المعرفة ويدونونها في كتبهم ولكننا نجهلها نحن الجهل التام .

يعزى اشتقاق كلمة « كيمياء » الى كلمة مصرية قديمة « سيميا » معناها السواد ، وقد اولها مؤرخو الكيمياء شتى التأويل ، فمنهم من قال ان معناها الارض السوداء اشارة الى الخصب والبركة ، ومنهم من جعل السواد رمزاً الى السر والخفاء ، ودليلهم على ذلك الاشارات المعقدة التي كان يتخذها القدماء لتضليل العامة ولتفهيم التلميذ الخاص فقط .

اذا اردنا ان نبحث عن المنابع الحقيقية للكيمياء العربية نجد بذلك صعوبة عظيمة ، لأنه لا يزال ذلك في طي الخفاء نعم نحن نعلم ان للاسكندرية دوراً هاما في هذا الشأن ، ولكن المنبع الاصلي لهذه المدرسة لا يزال مجهولا فمنهم من يعزو ذلك الى آشور وبابل ، ومنهم الى الهند ، ومنهم الى الصين ، والى غيرها من الممالك والبلدان ، وهكذا اختلفت وتضاربت الافكار ، ولكل صاحب دعوى حجج وبراهين ومما لا شك فيه ان شواطيء الرافدين ـ دجلة والفرات ـ

كانت مركزاً هاما لمدنيات لعبت دورها في التاريخ . وقد عرف هناك عمل الزجاج وشي الفخار وتحضير الكلس (كما سبق الاشارة الى ذلك) واستحصال المعادن من فلزاتها . يضاف الى ذلك ان لفظ « الغول » هي لفظ آشوري مشتق من « الغولو » وكلمة المرقشيثا تشتق من « مرحشي » . كذلك عرف الآشوريون معدناً يسمونه « الكبالتو » وهو نفس معدن « الكوبلت » المعروف اليوم ، والذي كانوا يستعملونه قديما في صبغ الخزف والزجاج . ولقد قام كل من « كامبل تومبسون » الانكليزي « وهاينريخ تسيمرمان » الالماني وغيرهم من علماء الآشوريات بنشر بعض نصوص مسمارية مع ترجمتها الى اللغات الاوروبية ، فيها وصف للخامات المعدنية وكيفية استخراجها ، واصباغ خزفية مختلفة تشير الى صنع برج اشتار الذي كان معروضاً في متحف برلين قبل الحرب العالمية الثانية .

ان الذين يعزون الكيمياء الى الهند يقيمون دليلا على ذلك كون الهنود القدماء كانوا يحاولون قلب عناصر المادة للوصول الى مادة من شأنها ان تطيل الحياة . وكانوا يسمونها

« راسانيا » ومعناها في اللغة السنسكريتية مجرى الحياة ، لأن « راسا » معناه الجري و « يانا » معناه الحياة . اذن هي في نظرهم علم الحياة ، او علم تبديل الحياة . اما الصلة الحقيقية بين معارف الهنود القديمة في هذا الشأن وبين الكيمياء العربية فلاتزال مجهولة .

يحاول جونسون ان يبرهن على ان الكيمياء انتقلت من الصين الى الاسكندرية ، لأن أقدم نظرية للكيمياء (كما يدعي هذا المؤلف) نجد مصدرها صينيا . فقد ذكر عن كاتب صيني قديم يرجع عهده الى سنة ٣٣٠ قبل المسيح انه حرر عن الفلسفة التاثوئية والسيمياء ، تحتوى الأخيرة على كيفية تحويل المعادن واكسير الحياة ، تلك المادة التى تطيل الحياة على زعمهم وتقضي على الموت . ان وجود المنبع الصيني في الحقيقة لم يحل المشكلة بل زاد في تعقيدها ، سيما ونحن لم نجد أى ذكر عن الصين في المؤلفات العربية الكيميائية التى وصلت الينا .

اما منابع اليونان التى كان لها الاتصال المباشر فاننا نقسمها الى قسمين : القسم الاول هي الفلسفة اليونانية التى كان

ابطالها كل من سقراط وافلاطون وارسطوطاليس والفلاسفة الذين اتوا من بعده ويمكننا أن نسميها المدرسة الاثينية . أما الثانية فهي المدرسة الاسكندرية الشهيرة . وقد أثرت الأولى تأثيراً توجيهيا فقط بما يخص تطور العلم الذى نحن بصدده ، وقد كان تأثير الثانية مباشراً لوجود بعض من اعتنى في الكيمياء على النمط الذي عرف عند العرب فيما بعد وان هذه المدرسة الأخيرة لتتمثل لنا بصورة بطلها زوسيموس المعاصر لفلوطين الذي ينسب اليه مذهب الافلاطونية الحديثة والحق يقال ان الكيمياء بمعنى السيمياء تمشي مع الافلاطونية الحديثة جنبا الى جنب ، ولها ايضا ناحيتان : ناحية تجريبية وناحية نظرية شديدة العلاقة بفكرة الوحي الشرقي . وهذا هو السر على ما يظهر بعلاقة الكيمياء الشديدة بالصوفية والتدين الشرقي ، ولا ينفي ذلك علاقتها بالافلاطونية الحديثة لأن هذه الاخيرة تمت بصلة قوية الى الالهام والفيض . وهكذا نجد في الكيمياء العربية بصورة بطلها الفذ جابر بن حيان حاجة شديدة الى مرشد روحي ، لأن هذا الفن على مفهومهم هو وليد هذا الفيض . وفي الحقيقة فان هذا التفريق الذي

نعمله اليوم بين الدين والعلم لم يكن معروفا في العصور الخوالى لأن العلم في نظر الأقدمين هو العبادة وغايته غاية روحية لامادية الا وهي الاطلاع على سر الخليقة و معرفة العلة الحقيقية للاشياء توصلا الى علة العلل الا وهي الله . وهذه الفكرة على مايظهر ترجع بجوهرها الى كهان مصر وآشور وبابل وغيرهم من الروحانيين الشرقيين . ولطالما كان مصدر هذا العلم الفيض الرباني ، فلكي تكون النفس آنية ذلك الفيض ، يلزم ان تطهر من الادناس ، وهذا الطهر لا يكون الا باتباع امام صادق . واذا كان من المتعذر على الباحثين اثبات مصدر واحد للكيمياء العربية في نزعتها الروحية ، فما لاشك فيه انها بضاعة شرقية . وهنا نشاهد جليا ان الشرق كل لا يتجزأ . لقد اقتبس الغرب من الشرق الجانب المادى من علومه وطرح الجانب الروحي إن لعدم فهمه اياه او لأختلاطه بالسحر والشعوذة ، فلم يفهم انتزاع النواحي الصحيحة صافية . ولو انه فهم ذلك لخفف من غلوائه ومن اختراعاته للآلات الجهنمية التى تفتك بالانسان دون شفقة ولا رحمة .

ان تاريخ الكيمياء القديمة يمشي جنباً الى جنب مع تاريخ

الافلاطونية الحديثة التى انبثقت من الاسكندرية واستقت من كثير من المنابع الشرقية . وعلى ما يذكره مؤرخو الكيمياء ان زوسيموس نفسه المعاصر لافلوطين قد ورث كثيرا عن الكهان المصريين مباشرة، لأن بزوغ هذا العلم كان من مصر وان مدرسة الاسكندرية قد تلقنته عن الكهان انفسهم .

من هذه الجولة البعيدة المدى نقدر ان نستنتج نتيجتين :

اولا : ان المنبع الواضح للكيمياء هي مصر وان رأينا نزعات مختلفة مشابهة للنزعة المصرية ، ولكن المنبع الذي استقت منه مدرسة الاسكندرية التي كان لها التأثير المباشر على ما يظهر على الكيمياء العربية ــ هو منبع مصري

ثانياً : ان هذا العلم السحرى يرتبط مع رجال الدين والكهنة ارتباطاً وثيقاً وبرز في الاسكندرية على يد رجال شديدي العلاقة بالافلاطونية الحديثة التى هي بثوب يوناني وبروح شرقية . وقد حافظ هذا العلم على شكله الصوفي مدة طويلة من الزمن وظهر لنا بعد ذلك في ارض الرافدين متعلقاً بالائمة المجتهدين والمتصوفة علاقة شديدة كما سوف نجد ذلك في العلاقة الروحية الشديدة بين جابر والامام جعفر الصادق .

نعم اننا توفقنا لحل بعض الغاز في تاريخ الكيمياء، ولكننا نعترف ايضاً ان الغازاً جديدة قد اثيرت ايضاً ، لأن آثار جابر التي تمثل النموذج الاول لعلم الكيمياء العربية لا تقتصر فقط على المدرسة الاسكندرية والافلاطونية الحديثة وكهنة مصر ، بل ان هناك منابع جديدة يحار المنقبون في ايجاد مصدر لها . وفي الحقيقة اننا لا نزال في البدء في معرفة تطور هذا العلم ، ويجب ان نصرح بأن دراسات جدية لم تقم حتى الآن لأن من يشتغل في تاريخ الحضارات قلما يهمه الاشتغال في تاريخ الكيمياء ، ومن يهتم في المادة نفسها يحرص على تمضية اوقاته في المخابر بين التقطير والتبلور والتحليل والتركيب وغير ذلك من العمليات الكميائية ، لأنه يجد ذلك اجدى وانفع ، وقلما نجد كيميائياً يلتفت الى تاريخ الكيمياء ، اما وضع العراقيل للكيميائي وصرفه عن اعمال المخبر - كما هو الحال في بلادنا - ، فذلك لا تقوم به الامم الراقية رغم ضخامة عدد الكيميائيين . واننا نقول صراحة انه اذا لم تعمل خطوات جدية في هذا الخصوص من قبل لجان دولية ، فان تاريخ هذا العلم يبقى في طي الكتمان . وانا لنأمل من اللجنة

الثقافية لجامعة الدول العربية الاهتمام في الامر محافظة على تراثنا. واملنا شديد من «الاونسكو» ـ المنظمة الثقافية الدولية ـ التي تساهم فيها اكثر الامم المتمدنة ان تسعى سعياً حثيثاً في كشف النقاب عن جميع الغاز هذا العلم التاريخية .

الاسلام يحث على العلم

إذا اردنا استقراء تاريخ العلوم في الشرق العربي أو بالاحرى في الشرق الاسلامي نجد ان جميعها برزت الى الوجـــود بعد البعثة المحمدية ، فالشعلة التي اضرمها محمد بن عبدالله (ص) في الجزيرة العربية كانت نواة لنهضة علمية ثقافية اتت اكلها فيما بعد في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة ودلهي وغيرها من البلدان ، فلم تكن المدنية التي اسسها صاحب الشريعة الاسلامية مدنية ضرب وطعن (رغم ماتخللها من حروب دامية) بل كانت مدنية علم وفكر عميق . ولا نريد ان نستشهد بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية التي تحث على العلم ، لأن ذلك بديهي يعرفه كل من اشتغل في تاريخ العلوم . وقد اساء نفر الفهم فظن ان العلم المقصود يقتصر على علم الشريعة لا على ادراك عظمة الله

بآياته الكونية ، ولكن تلك الآية البينة من سورة فاطر تظهر لنا بصورة صريحة وواضحة ان المقصود هو العلم الكوني: « الم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه ، كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء . ان الله عزيز غفور » .

اذن فلا غرابة ان يلتفت المسلمون الذين ولجوا في الدين الجديد الى العلوم التي كانت شائعة في عصرهم . لقد تواتر الينا من العلوم القديمة اللغة والفقة ومختلف العلوم الشرعية ، ولكننا لا نزال نجهل دور العلوم الكونية في المدينة الاسلامية .

كان المسلمون في البدء نقلة امناء في مثل هذه العلوم اخذوا العلوم عن غيرهم ، ولكنهم لم يقفوا عند السوية التي اقتبسوها ، فتحوا آفاقا جديدة في البحث والتحري العلمي . في البدء اذن كان دور الترجمة ثم اعقب ذلك دور الابداع والكشف . وانا لنقف مطأطىء الرؤوس امام اولئك الخلفاء العباسيين الذين اغدقوا العطايا على اولئك المترجمين الذين نقلوا لهم تراث

الاوائل .ولا يبدأ عصر الترجمة بالمأمون (كما هو متواتر)، بل - كما دلت الوثائق الاخيرة - بعمر بن عبد العزيز الخليفة الاموي. اما الترجمة الفعلية المتواصلة فقد كانت في عهد العباسيين .

انا لنستغرب جد الاستغراب كيف يقوم اولئك الخلفاء في ذلك الماضي السحيق بنقل العلوم الى لغتهم مع بعد الشقة بينهم وبين الاوائل ، ونحن لا نجد همة في نقل علوم الغرب الى لغتنا رغم اننا نعيش في قلب الحضارة الغربية ونرى آثارها في تسهيل مرافق الحياة وفرض السيطرة السياسية .

ظهر في الاسلام عدة علوم غير معروفة من قبل كالرياضيات على تباين انواعها والفلك والجغرافيا والطب والحيوان والنبات والمعادن والجمادات على اختلاف انواعها وتباين اشكالها .

ان هذه العلوم كانت قبل الاسلام ، ولكنها ازدهرت وانتعشت في المدنية الاسلامية . ومن جملة العلوم التي ظهرت الكيمياء ايضاً التي عرفت في الاسكندرية قبل ان تعرف في المدنية العربية ، ولكن الانتقال المباشر الى الغرب واجتناء الثمرة العصرية كان عن طريق الكيمياء العربية . ومن الجدير ان نثبت ما قاله « الاسكندر فون هومبولدت » احد اساطين العلوم

الطبيعية في الغرب في كتابه المشهور «الـكون» (كوسموس) عن العرب في هذا الصدد في دورهم الذي لعبوه في العلوم:

« العرب اولئك الشعب السامي الذي اباد قسماً من البربرية التي سطت على اوربا مدة قرنين من الزمن ، يرجعون بعلومهم الى منابع الفلسفة اليونانية الخالدة ، ولـكنهم لم يكونوا نقلة امناء فحسب، بل رقوا العلوم التي اقتبسوها واوجدوا طرقاً جديدة لفهم الطبيعة لم تطرق على بال الاوائل »

اذا كانت جميع العلوم تـكاد تـكون واضحة من انتقالها من الاوائل الى المدنية الاسلامية ، فأن الـكيمياء الممزوجة بالسحر والطلاسم والقوى الروحية المبهمة والتجــارب الـكيميائية الواضحة مــع نظرة كونية شاملة و فلسفة خاصة في المادة وتـكيفها وانقلاب عناصرها وغير ذلك من الامور ، فلا يزال يكتنف كنهها الغموض والابهام . ومما يزيد القضية تعقيـداً اتصال هذا العلم قديماً مع جميع العلوم والفنون ، ولا يقتصر هذا الاتصال على العلوم الطبيعية على اختلاف تفرعاتها فقط بل يتصل ايضاً بتاريخ الفلسفة والتدين اتصالا" وثيقاً. ولعل كيفية ظهور هذا العلم في المدينة الاسلامية ، من اغمض الامور

وانا في الفصل الذي يلي هذا الفصل سوف نقول كلمتنا في ذلك ، معتذرين عن عدم امكاننا حل المشكل بما يرضي الضمير العلمي الحر .

ظهور الكيمياء في المدنية الاسلامية

يعتقد « اشبنجلر » في كتابة « سقوط الغرب » ان للاسلام روحية خاصة قد ولدت هذه العلوم ، وعلى رأيه اننا اذا تتبعنا تاريخ الحضارات نجد سر العدد متعلق بسر ابداع الفن ، ففي المدنية الاسلامية ولد الجبر وولدت معه روح خفية باحثة عن سر الخلود في الكون . وان آثار هذه الروح لتتجلى لنا في جميع منتجات الشعوب الاسلاميـــة في الرياضيات والبحث الطبيعي والفن ايضاً .

هذه الروح على زعمه هي التي اوجدت الكيمياء السحرية التي انجبت الكيمياء المصرية ، فالذي كان يحاول ان يسعى اليه العربي قديماً مستنيراً بنور هذه الفكرة ، ليس ادراك ظواهر المادة ، بل معرفة سرها الخفي وكيفية انقلابها من عنصر الى عنصر . ولا نريد التوغل في هذا المفهوم وما نتج عنه من علوم عديدة ، بل نود الاقتصار على كيفية ولوج

هذا العلم - اعنى الكيمياء - في المدنية الاسلامية .

ان المناسبات التجارية بين جزيرة العرب و بين باقي الاقطار وخاصة سوريا جعلت نفوذ كثير من المذاهب حتى في العهد الجاهلي (كما يدعي ذلك مؤرخ الكيمياء هولميارذ) ممكنا وقد تسربت ايضاً مفاهيم الكيمياء ، ويؤكد العرب انهم ورثوا هذا العلم عن خالد بن يزيد ، حتى ان بعض الروايات تعزيه الى النبي (ص) والى ختن الرسول وابن عمه امير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) . ومن المحقق تماماً ان المسلمين تعرفوا الى هذا العلم بصورة سريعة جداً ، وقد استقوه من منابع عديدة ، وان اهم مصدر لهم على ما بيناه كان مدرسة الاسكندرية . وها نحن نلخص الرواية المتواترة في مصدر هذا العلم :

كان يعيش في الاسكندرية راهب يدعى «ماريانوس» كان يشتغل في الكيمياء ، وقد سمع به الامير العربي خالد بن يزيد واستدعاه الى دمشق ليتعلم منه الصنعة . و بعد اخذ ورد قبل هذا الراهب المجيء الى سوريا ليعلم خالد الكيمياء ، وقام في ترجمة عدة كتب الى اللغة العربية .

لا ندري الى اي درجة تصل صحة انتساب خالد الى الكيمياء ،

ولقد عثر الاستاذ« روسكا »على مؤلف ينسب لخالد، ولكن لدى البحث والتمحيص تبين ان هذا الكتاب لمنتحل للاسباب الآتية :

١ ـ لانه يشبه الكتب التي الفت في القرن الثالث عشر .

٢ ـ لم نجد ذكراً لمثل هذا المؤلف في الرسائل التي كانت تستقي من منابع سابقة . ولم نجد له ذكراً في كتاب جابر الا مرة واحدة اثناء الحديث عن راهب يمت بصلة الى خالد بن يزيد ، كما سوف نتكلم عن ذلك فيما بعد . وعلى هذا النمط فهناك كتاب ينسب الى الامام جعفر الصادق (ع) ، وذلك لاسلوبه المتأخر ، ولعدم وجود ذكر له في المصادر العربية كفهرست ابن النديم وطبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة وغيرها من الكتب، وقد نشر هذا الكتاب « روسكا » المتقدم الذكر . واذا اردنا في الحقيقة ان نبحث عن تأثير الامام جعفر الصادق في الكيمياء فلا نتوصل الى ذلك بهذا الكتاب المنتحل بل بما اورده جابر نفسه في كتبه التي وصلت الينا .

ان اول شخصية تاريخية ظاهرة اشتغلت في الكيمياء في العرب والاسلام هي جابر بن حيان الصوفي ، الممثل الاول

للكيمياء العربية ، وهو الذي اثر ايضاً في الكيمياء الاوروبية، لظهور عدد لا يستهان به من المخطوطات اللاتينية في الكيمياء المنسوبة الى جابر . وقد اعتقد « برتلو » صاحب كتاب «الكيمياء في القرون الوسطى» المحرر باللغة الافرنسية ان الكتب اللاتينية لا تمت بصلة الى جابر ، وقد جاراه على فكرته بقية مؤرخي الكيمياء . ان سبب الانتحال على مايدعيه « برتلو » ويقره عليه غيره من الباحثين ، ان الكتب اللاتينية الجابرية لاوجود لها في الاصل العربي . وهذا على مانعتقد لايمنع ان تكون من مصدر عربي ايضاً ، فقد تكون النسخ الاصلية قد فقدت ، أو ان المؤلفين باللغة اللاتينية قد اضافوا اليها اشياء من عندهم شوهوا بها معالم المصدر الاصلي . وعلى كل فان وجود هذه المخطوطات اللاتينية المنسوبة الى جابر سواء كانت منتحلة أم اصلية فهي دليل قاطع على المكانة السامية التي كان يتبوأها جابر في الكيمياء الاوربية .

ونظراً لهذه المكانة لجابر نرى لزاما علينا ان نقول كلمة عن تاريخ حياته اعتماداً على تحقيق « هولميارد » في كتابه « صانعو الكيمياء » .

ينتسب جابر الى قبيلة اليزد التي نزحت من جنوبي الجزيرة العربية الى الكوفة واستوطنت هناك وقد انحدر من هذه القبيلة رجل عرف باسم حيان كان يشتغل بالعطارة . ولم يكن لهذا العطار شأن يذكر الى ان اتصل بالبلاط العباسي ، فقد كان يقوم بالدعاية للخلفاء بجانب مهنته ، ومن اجل هذا الغرض ارسل الى الفرس ، فنزح مع زوجته وولده جابر الى طوس من اعمال خراسان قرب مدينة مشهد الحديثة . ويقدر الزمن الذي ولد فيه بين ٧٢١ و ٧٢٢ ميلادي . ثم ارسل جابر الى الجزيرة العربية للاتصال بقبيلته اليزد وبقي هناك الى ان بلغ اشده ، فاتقن العربية وتعلم القرآن والحساب وعلوما اخرى على يد رجل عرف باسم « حربي الحميري » (ولعله ذلك الذي يذكره في مصنفاته اثناء الحديث عن الراهب الذي تلقن عنه بعض التجارب) . وقد اتصل بالامام جعفر الصادق « ع » وتتلمذ عليه ولعل ذلك كان اثناء وجوده في الجزيرة العربية ، او اثناء دخول الامام نفسه العراق واقامته بها مدة ..

ان صلة جابر بجعفر كانت السبب في تقديمه في البلاط العباسي نظراً لمكانة الامام . وهكذا استقبل جابر في بلاط هارون

الرشيد بحفاوة زائدة . وكانت صلته مع البرامكة قوية ايضاً وخاصة مع يحيى بن خالد الذي نجد ذكره في رسائله ايضاً ويحدثنا الجلدكي ذلك الكيميائي الذي عاش في القرن السابع الهجري والرابع عشر ميلادي بأن جابراً اتصل بالخليفة هارون الرشيد نفسه بواسطة جعفر البرمكي وقد الف له كتاباً يدعى الباسم . ويقول « هولميارد » انه بواسطة جابر نقلت كتب عديدة من الاستانة الى بغداد بقصد الترجمة ، كما حدث ذلك من قبل في عهد خالد بن يزيد قبل ثلاثة ارباع القرن .

ان اهتمام جابر كان في الكيمياء ، وقد سرد ابن النديم جدول الكتب التي الفها ، فبجانب العلم الذي اشتهر فيه اهتم ايضاً بعلوم عديدة . من الغامض معرفة اتصاله الاول في بغداد ، بيد اننا نعلم انه قضى حقبة من الزمن في الكوفة ، ثم انتقل الى بغداد ، وعند نكبة البرامكة فر من العاصمة العباسية وعاش في الكوفة ايضاً ، وبقى فيها - على ما يظهر - الى ان مات ، وان تاريخ وفاته لا يزال غامضاً ايضاً ، ويذكر الجلدكي الذي اهتم ايضاً بتاريخ الكيمياء انه كان لا يزال حياً حتى عهد المأمون ، وان العمل الذي قام به في اخريات

حياته هو تقريب الامام الشيعي علي الرضا من الخليفة العباسي ويقدر «هولميارد» الزمن الذي عاش فيه خمس وتسعون سنة ودليله على ذلك ان المؤلفات التي الفها لا يمكن انجازهـا بأقل من هذا الزمن .

أخذ جابر مادته الـكيمياء من مدرسة الاسكندرية التى كانت تؤمن بامكانية انقلاب العناصر ، وقد كان تطورها من النظريات الى العمليات . وكان هو اول من ساهم في السير في هذا الطريق ، ولم يهمل الجانب النظرى الذي يمت الى الفلسفة اليونانية والتصوف الشرقي بصلة قويه . وفي الحقيقة فأن جابرا هو بطل الميدانين فى هذا العلم : النظري والعملي .

ان اول شبح من اشباح التاريخ الذي يظهر امامنا في حقل الـكيمياء اذن هو جابر بن حيان الصوفي ، ويمكننا ان نعد رسائله اول مظهر من مظاهر الـكيمياء في المدنية الاسلامية ويغلب على الظن ان عددا عظيما من رسائله كان نصيبها الفناء ولا تزال غامضة حتى يومنا هذا مصادر معرفته على جليها والمنتحل والاصلي من آثاره . وان كانت حياة هذا العبقري تجري على ضوء التاريخ ، ولـكن للعظمة في العالم

آ فة وهو اسناد كل بضاعة علمية لها وذلك بقصد ترويجها .
وفي هذا جناية على العلم ووضع حجر عثرة في سبيل التحقيق التاريخي .

مهما كانت النتيجة فأن اعجابنا ليزداد بأولئك العلماء الافاضل الذين سبقوا زمنهم بعصور عديدة وتنبأوا بأمور قام على تحقيقها العلماء الافذاذ في العالم ، وذلك في وحدة العناصر وامكان انقلابها من شيىء الى شيىء ، فما كان حلما من قبل اصبح حقيقة راهنة ، ولم يقف الانقلاب من عنصر الى عنصر بل من عنصر الى طاقة ، وبهذا امكن تحطيم الذرة والحصول على طاقة هائلة .

بعد هذه النتائج العصرية الهامة نرى من الواجب علينا القيام باخراج المخطوطات القديمة وتبيان اهميتها ودراستها دراسة متقنة لا من علماء لغويين ومؤرخين فحسب ، بل من علماء طبيعيين عصريين اوتوا حظاً عظيما في العلوم الايجابية الحديثة . واذا تمكنا ان نعقل تماماً ما هو السر في سوابق المعرفة دون الارتكاز على خبرات طويلة ، قدرنا على كشف شيء جديد من تاريخ الفكر البشري لا يزال طي الخفاء . وكم

من الحقائق العلمية الحديثة نجدها في بطون المخطوطات القديمة لو امعنا في ذلك النظر ودققنا بتجرد واخلاص . هنا نحن على حافة حقل جديد او بالاحرى على شاطيء خضم واسع عميق الغور يحتاج الى رواد لاكتشف عن حقائقه وما يحويه في اعماقه من درر

من الامور التي يكتنفها الغموض الشديد العلاقة بين جابر والامام جعفر الصادق للتفـــاوت الذي بينهما ، واني سأحاول في هذه الدراسة المتواضعة التي يجب ان تكون مقدمة لدراسات مطولة ، كشف الغطاء عن هذه العلاقة جهد المستطاع ، لأعتقادي ان الاشتغال في هذا الموضوع يثير اهتمامنا في قضايا هي من الاهمية في مكان .

مشكلة الامام الصادق ومحاولة حلها

مدخل ، آراء هولميارد ، نقد روسكا ، رد اسماعيل مظهر .

كراوس ومشكلة جابر :

١ : مصادر جابر

٢ : ميزة مخطوطات جابر

٣ : براهينه في اثبات ان رسائل جابر متأخرة التاريخ

٤ : تاريخ الاسماعيلية وتعاليمها

٥ : تحليل رسائل جابر على ضوء التاريخ الدينى

٦ : خلاصة البحث عند كراوس

نقد آراء كراوس

استقصاء اشارات الامام الصادق في رسائل جابر

١ : القسم بالامام

٢ : طلب الامام الصادق من جابر تسهيل الموضوع

٣ : الاقرار بالتعلم من الامام جعفر الصادق

٤ : التقاء جابر بالامام الصادق .

٥ : سيطرة الروح الجعفرية في رسائل جابر

أ : الاخلاق الفاضلة

ب : التوجيه نحو الباطن

ج مبدأ الميزان المستمد من فكرة العدل الالهي

د : نقد القياس

القياس الحنفي والاعتبار الجعفري

مدخل :

لدى مطالعتنا للتراث الضخم الذي خلفه لنا جابر عن الكيمياء نرى اعترافاً صريحاً بأن المعلم لهذه الصنعة هو الامام جعفر الصادق « ع » ، وقد اطلع على هذه الحقيقة كثير من المستشرقين الغربيين ، فأعتقدوا في ذلك مبالغة عظيمة . وفي النقد الذي وجهوه ضد هذه المشكلة قالوا انه لمن المستحيل على جعفر ان يلم هذا الامام العظيم بالعلوم والفنون التي ذكرها جابر في المخطوطات التي وصلت الينا والتي يوجد منها عدد غزير في القاهرة والتي لم تدرس الدراسة الكافية بعد ، ويعتقد روسكا انه لمن المستحيل على جعفر ان يكون كيميائياً ، فليس من الممكن ان يتعاطى تلك الصنعة سواء كان ذلك نظريا او عمليا وهو في المدينة . ولقد اعجب

بحق كل من « برتلو » الافرنسي و « هولميارد » الانكليزي بالمعلومات الغزيرة التي تسند الى جابر .

بين « باول كراوس » العلاقة الشديدة بين رسائل جابر والاسماعيلية متخذاً ذلك حجة على انتحالها . واتماما للفائدة سوف نلخص آراء كل من هؤلاء الذين اشتغلوا في تاريخ جابر مبينين حججهم ونواحي ضعفها وقوتها . بعد ذلك سوف نسعى في احصاء جميع الاماكن التي وردفيها ذكر الامام جعفر الصادق في رسائل جابر المنشورة والتي سبق ذكرها في مقدمة دراستنا هذه ، ساعين لتبيان سيطرة الروح الجعفرية في الرسائل ذاتها ، محاولين تبيان المذهب الجعفري وخاصة لدى المقارنة بينه وبين مذهب ابي حنيفة ، منوهين بأوجه التشابه بين هذا المذهب وبين آراء جابر التي دونت في رسائله ، داحضين اقوال المستشرقين التي ذكروها دون تمحيص نصوص جابر نفسها المتعلقة باستاذه الامام جعفر الصادق ، محاولين تحليل تلك الاقوال على ضوء العلم الصحيح ، خاتمين بحثنا بنتيجة هامة : وهي تبيان المواضع التي كان فيها الامام جعفر الصادق مصدراً لجابر والمواضع التي لم يكن كذلك ،

لأن الخطأ الكبير الذي ارتكبه المنقبون في هذه المشكلة هو عثورهم على النواحي السلبية وتعميمهم ذلك ، دون ان يكلفوا انفسهم عناء البحث عن النواحي الايجابية التي لا يهتدي اليها الانسان الا بشق الانفس وجهود متواصلة ودراسة مطولة لنصوص مبعثرة ومقارنات بعيدة المدى وتتبعات متباينة من جهات متعددة . ومن اغرب ما وجدناه اننا لم نجد تمحيصا لمذهب الامام جعفر الصادق وتعاليمه عند المتتبعين الذين عالجوا القضية ، هم ينتقدون الحكم المستعجل ويقعون فيه ايضا . وسنبدأ في دراستنا بتلخيص آراء هولميارد الانكليزي .

هولميارد

ان المقالات الاولى « هولميارد » تنبئنا (كما بين لنا روسكا في دراسته عنه) بمعرفة جيدة للمخطوطات العربية . وقد فاق سلفه أمثال « برتلو » و « هوداس » بالتعرف الى مشكلة جابر . وهو يرى في حكم برتلو على عدم توافق جابر اللاتيني مع جابر العربي غلوا شديداً .

يبتدىء « هوليارد » دراسته بنشرة باللغة الانكليزية عن جابر بن حيان في نشرات الجمعية الطبية الملكية البريطانية . ويعطينا في المقدمة عن ولادة جابر وترجمة حياته من المصادر المعروفة لدينا ، وان المعالجة المفصلة ترتكز على المخطوطات العربية عن جابر الموجودة في امهات المكتبات العالمية . ويذكر في الختام المكانة السامية التي يتمتع بها جابر . بعد ان يبين تاريخ الكيمياء على النمط الذي اشرنا اليه يقول :

« ان جابرا هو تلميذ جعفر الصادق وصديقه ، وقد وجد في أمامه الفذ سندا ومعينا وراشدا أمينا ، وموجها لا يستغني عنه . وقد سعى جابر ان يحرر الكيمياء بأرشاد استاذه من أساطير الاولين التي علقت بها من الاسكندرية ، فنجح في هذا السبيل الى حد بعيد . من أجل ذلك يجب أن يقرن أسم جابر مع أساطين هذا الفن في العالم أمثال « بويله » و « بريستله » و « لافوازيه » وغيرهم من الاعلام »

يعتقد « هوليارد » ان برتلو الافرنسي لم يقدر شخصية جابر حق قدرها ، لأنه لم يتح له ان يدرسها الدراسة الكافية فمن يدرس ذلك بأمعان تتجلى له شخصيته العظيمة . ويعلق

روسكا على ذلك بقوله : « نعم ان « هولميارد » على حق لأن برتلوا لم يطلع على النواحي العديدة للعلوم التي تطرق اليها جابر نظرا للمخطوطات التي تنسب اليه . واذا درسنا فهرست ابن النديم نجد حقيقتين لا محيد عنهما :

اولا : ان جابرا كان على اتصال مع البرامكة ،

ثانيا : مع ائمة الشيعة المعاصرين له » .

اما من جهة الاصلي والمنتحل من مخطوطاته ، فيرى « هولميارد » ان أكثر مخطوطاته في فنون الحرب والطب والسحر هي منتحلة ، وأما مخطوطاته في الكيمياء فهي أصلية

يرى « هولميارد » اذن ان جابرا قد استقى علومه من الامام جعفر الصادق ولا يجد في ذلك حرجاً ولا اى مانع من الموانع العلمية والتاريخية .

نقد روسكا

اشتغل روسكا بادىء ذي بدء بكتاب سر الاسرار للرازي ، وتوصلا الى مصادر معلوماته اراد معرفة مصادر

الكيمياء الاولى ، وقد وجد ان اهم مصدر من مصادر الرازي هي مخطوطات جابر العديدة . وقد جلب نظره بصورة خاصة كون جابر تلميذ جعفر الصادق ، تلك التلمذة التي اوردها برتلو الافرنسي واعتقد بها اعتقادا جازما . ويعلق على ذلك روسكا بسؤاله : « هل ان جعفرا كان معلم جابر حقا » ؟ فيجيب باستحالة ذلك ، ويعزو سبب هذا الانتحال ـ انتحال تلمذة جابر على الامام جعفر الصادق ـ للمكانة السامية التى يحتلها جعفر الصادق عند الشيعة مما أدى الى اختلاق العلاقة بين الاثنين على زعمه ، هذه العلاقة التي يجب ان ينظر اليها ـ برأيه ـ بتحفظ وحذر .

يرى روسكا ان ثلاثة من كتب جابر التى نشرها برتلو هي منتحلة وهي كتاب الرحمه وكتاب الميزان وكتاب الملك بيد انه لا يأتينا بالبراهين القاطعة على ذلك . حتى انه يغالى اكثر من ذلك فيصرح بأن جميع النصوص التي ترجع الى ما قبل القرن الثامن الميلادي يجب النظر اليها بعين الريبة ، مثل نصوص جعفر الصادق وخالد بن يزيد وعلى رأيه أيضا نصوص جابر نفسها . وليقوم فى العمل النقدي أخرج كتابين نسب

أحدهما الى خالد بن يزيد والثاني الى جعفر الصادق وذلك في «هايدلبرغ» عام ١٩٢٤؛ . وهو يرى أن هذه النصوص هي من انتحال القرن التاسع والعاشر ميلادي ، ويقول تعليقا على ذلك : « اذا دققنا جميع هذه الخلمات نجد ان مانسب الى جعفر من الآداب السحرية لمنتحل ، لأن تيار التقديس الذي كان من نصيب اولاد علي هو الذي اوجد هذا الاختلاق ، وجعل كثيرا من الناس ينتحلون امورا لم يكن ليقولها الامام الصادق »

هذا مايخص السحر . اما مايخص الكيمياء . فأن روسكا يرى انه من المستحيل على جعفر الصادق ان يتعاطى الكيمياء وهو في المدينة سواء كان ذلك عمليا أو نظريا ، لأن زمنه ومحيطه ـ على رأيه ـ لا استعداد لها في ذلك ، فاذا قبلنا جدلا ان خالد بن يزيد قد تعاطى الكيمياء إن في الاسكندرية او في دمشق نظرا لتماسه بالتراث اليوناني أو أتى ببعض تجارب في هذه الصنعة (على دعواه) ، فأن المقدمات لذلك مفقودة في المدينة بتاتاً ، فمن المستحيل ان نتصور (كما يقول روسكا) ، سواء كان ذلك بالطرق الطبيعية المعهودة أو بالطرق غير الطبيعية عن طريق الوحي والالهام أن يشتغل هؤلاء الاتقياء في مثل هذه

الصنعة . وليس من المعقول (على دعوى روسكا) ان نتخيل ان جعفرا عرف البوتقات والافران الكيميائية والقرعات والانبيقات والنشادر والزئبق والكبريت ، او فن قلب جوهر المادة أو غير ذلك من الأمور الكيميائية .لذلك فهو يعتبر جميع كتب جابر التي تشير الى جعفر منتحلة ومن تاريخ متأخر .

يذكر روسكا ايضاً ان «هولميارد» يرى امكان وجود بعض انتحال في نسبة جابر الى جعفر الصادق ، ولكن هذا الاخير يرى ضرورة الدراسة المتقنة في هذا الصدد . اما سبب عدم توافق مخطوطات جابر العربية مع المخطوطات المنسوبة اليه باللاتينية فيعزي ذلك الى صعوبة الترجمة الحرفية وخاصة بين لغتين بينهما شقة واسعة . فاذا لم نعثر على ترجمة حرفية فيلزم ان لا نعد ذلك انتحالاً ابداً . وقبل ان نعطي الحكم في الانتحال يلزم ان نعين ماهي آثار جابر الاصلية ومقارنتها مع بقية المخطوطات لنعين المنتحل والاصلي .

ينتقد «هولميارد» روسكا في دعواه كون المناسبة بين جعفر وجابر لا اصل لها ، ويبرهن على وجودها ماقرأه في ابن النديم

وفي آثار ايدمير الجلدكي الكيمياوي المتأخر . اما روسكا فلا يقنع بذلك وسببه الكتاب الذي عثر عليه والمنسوب الى جعفر الصادق والذي قام بنشره في «هيدلبرغ» ، كما بينا من قبل

يرى أيضاً روسكا ان جابراً قد تعلم الكيمياء في خراسان ولا يأتينا بدليل سوى قوله : « ان الامبراطورية الاسلامية كانت عبارة عن بحر صب فيه انهار عديدة من حضارات مختلفة من الشرق والغرب ، حتى من الهند وآسيا المركزية ، وقد صهرت في بوتقتها جميع النزعات الدينية والفلسفية والبستها ثوباً عربياً ومظهراً اسلامياً . وفي خراسان اجتمعت الصوفية الاسلامية والطب العربي القديم والتنجيم وغير ذلك ، ويلزم ان تكون قد انتقلت ايضاً المعارف المصرية عن طريق سوريا وارض الرافدين الى تلك الديار ، فانتقل مع من انتقل فن الكيمياء كذلك . »

ان السبب الذي يجعل «هولميارد» يؤمن بالعلاقة بين جعفر الصادق وجابر (على رأي روسكا) الرواية التي يسردها عن حيان العطار والد جابر الذي استشهد ضحية مذهبه . وهكذا اضطر جابر ان يتخذ الامام الصادق سندا وملاذا له ، رغم هذا

البرهان الذي يأتي به «هولميارد» لا يقتنع روسكا بذلك ويرى ظهور الكيمياء لا في مصر ولا في سوريا ولا من العلاقة بين جعفر الصادق وجابر ، بل هي من الروحية الايرانية المطعمة بالفلسفة اليونانية الهيلينية ، لا لأن اولئك المترجمين من السريان المسيحيين أو من بقية المذاهب لا قيمة لهم ، بل للعلاقة الشديدة بين الكيمياء والطب والتنجيم .

ان الدراسة التي قام بها الاخصائيون في كتاب السبعين وكتاب السموم لجابر (كما ذكر روسكا) اعطت لنا البرهان الساطع عن قيمة هذا المؤلف في تاريخ العلوم الطبيعية العربية . ولقد قام « بلسنر » في اقامة محاضرة حول هذا الموضوع نشرها « بوغس » في كتابه عن كبار الكيميائيين ، وهو يقر بعلاقة جابر الدينيه مع جعفر الصادق ولكنه يرفض العلاقة العلمية وعلى كل يرى روسكا غموضاً في مصادر جابر العلمية ويقول : « اين درس جابر ؟ وعلى يد من تخرج ؟ لا يبعد ان يكون قد ورث ميلا الى العلوم الطبيعية عن والده العطار ، ولكن من اين له هذا العلم الواسع والتمرين المنطقي ؟ انه لمن الصعب جداً معرفة مصادر لغته العلمية من هم الذين كانوا اساتذته

بذلك ؟ وعلى اي منهج سار ؟ ومن الذي ثقف لغته . هل ياترى قام في تلك المهمة السريان الذين اتقنوا الحذلقة اللغوية ام اثر عليه علماء الفرس ؟ اينما توجهنا نجد الغازا ومشا كل جديدة ، وهل هذه القضايا هي جوهرية ياترى ام انها عديمة الاهمية ؟ »

هكذا يطرح روسكا هذه الاسئلة ويقول : « لايمكننا ان نخطو خطوة الى الامام في هذا السبيل الا اذا درسنا النصوص الجديدة المنسوبة لجابر دراسة عميقة : ويلاحظ على ذلك فيقول : « ان تاريخ مشكلة جابر لاتتوقف عند المصادر فقط وجعل هذه المصادر سهلة التداول ، بل معرفة العلاقة الشديدة بين هذه المصادر وغيرها من منابع الحكمة ، والمعول دوما على الفكرة الجديدة التي يستنبطها البحاثة من هذه المصادر . ويعتقد روسكا اننا مهما اردنا ان نؤمن بأن مصادر جابر صحيحة وهي من منتجات القرن الثامن الميلادى ، نود ان نجيب دوماً على هذا السؤال ، ومن اين استقى جابر منابع معرفته ؟ هذا الجواب هو ولاشك متعلق بمعرفة مصادر العلوم العربية ، وهذه لاتتجلى لنا الا اذا القى ضوء جديد على القرون المظلمة الكائنة بين سقوط المدنية اليونانية وبزوغ

العلوم العربية » .

من ذلك نستنتج ان روسكا هو بين الشك واليقين في قضية جابر ، وهو يتردد الى اقصى حدود تردد وخصوصاً فيما له علاقة بالامام الصادق . اما السبب في ذلك فلعدم دراسة الموضوع حق الدراسة والاكتفاء بنشره الكتاب المنتحل على جعفر الصادق « في هيدلبرغ » . واذا كان هذا الكتاب منتحلا فليس معناه ان كل علاقة بين جعفر وجابر منتحلة . ومن الغريب ان يصدر هذا العالم حكمه قبل نشر آثار جابر ودراستها دراسة متقنة ، فحكمه اذن ظنون وتخمينات لا تمت الى اليقين بصلة . ولم تقتصر دراسات روسكا على مشكلة جابر بل هي متشعبة لم تنته اي دراسة من دراساته الى رأي نهائي .

لا نريد ان نفرد بحثا خاصا في ردنا على روسكا ، بل نود ان نأتي برأي تلميذه كراوس الذي عالج الموضوع بصورة اعم ، وان ردنا عليه يتضمن ردنا على استاذه ايضا ، لأن الأثنين لا يفترقان من حيث الماهية والجوهر وان اختلفا من حيث العرض والمظهر . وقبل ان نقوم في ذلك نرى ان لا بأس

علينا اذا اتينا برد اسماعيل مظهر .

رد اسماعيل مظهر :

يتطرق اسماعيل مظهر في كتابه عن تاريخ الفكر العربي بحث « جابر بن حيان » الى هذه المشكلة عينها فيلخص آراء روسكا ويعلق عليها بما يلي :

ان في مذهب روسكا كثيراً من مواضع الشك وترجيحات لامرجحات لها وذلك للاسباب الآتية :

١ : لم يستدل في التواريخ الموثوق بها ان جعفراً امضى كل حياته بالمدينة لم يبرحها .

٢ : ان قول الاستاذ روسكا في انه لم يعرف ان المدينة كانت مركزاً لدراسة علم الكيمياء ، ان كان صحيحاً ، فان صحته لاتنافي مطلقاً ان يكون الامام جعفر الصادق قد درس الكيمياء في مكان آخر .

٣ : ان علم الكيمياء لم ينتعش ويثمر الا بين ايدي الفارسيين اولا ، او انهم كانوا يعكفون على الاشتغال به .

٤ : ان الصوفيين غالب ما كانوا يدخلون المصطلحات الكيميائية في اشعارهم الباطنية .

٥ : ولهذا نقول بأن جعفراً اذا كان من عمد الشيعة وائمتها الكبار ، واذ كان على اتصال بشيعة فارس ، ولهذا ليس من سبب ظاهر يحول دون الاعتقاد بأنه كان يشتغل بعلم الكيمياء من طريق نظري على الاقل ، ان لم يكن من طريق عملي تجربي .

٦ : ان جابراً كان صوفياً كما هو مرجح من مقدمة كتاب السموم الذي ذكر قبلا ومن ترجمة القفطي له في تاريخ الكيمياء .

٧ : ان العادة في الطريقة الصوفية ان يتبع كل صوفي منهم شيخا له ولا يبعد ان يكون جابر قد تلمذ بالفعل على جعفر في الصوفية ، (١) ولا يبعد ان يكون قد سمع منه شيئا في الكيمياء .

---

(١) ان البعض من المستشرقين وغيرهم اما لعدم وقوفهم على الحقائق الاسلامية واسرار الاسلام او لغير ذلك خبطوا اخبط عشواء واختلط عندهم الحابل بالنابل فلم يميزوا بين الزهد والورع الذي هو سر من اسرار الاسلام وبين التصوف الخشن ولذلك نراهم دائما لا يتحرجون في ان ينسبوا الى ائمة العلم التصوف لما يرونه من زهدهم وورعهم وتحرجهم في الدين

ان النزعة الصوفية التي يزعمها هؤلاء ويلصقونها بالامام الصادق عليه السلام وبجابر وباقي اصحاب الائمة عليهم السلام انما هي من الخلط =

كل هذه الحقائق والاحتمالات لاتدل ، حتى لولم يثبت ان جعفراً كان مشتغلاً بالكيمياء ، على انبتات حبل الصلة بين جعفر وجابر ، كما انه لم يثبت ان جعفراً لم يكن عارفاً بمبادىء الكيمياء واعراضها .

على ان القول في ذلك عديدة وجوهه متشعبة نواحيه ، وقد يحتمل ان يكون رأي الاستاذ روسكا هو الواقع ، غير ان البراهين تنقصه .

هذا هو رد اسماعيل مظهر بحذافيره اوردناه هنا لقيمته ، وهو يذكر الاحتمالات فقط بصورة مجردة ومنطقية دون دراسة نصوص . اما قوله ان احتمال عدم مغادرة جعفر الصادق المدينة فالمصادر التاريخية تدل على انه دخل العراق واقام بها كما بينا ذلك في حينه ، كذلك تدل المصادر على سفر جابر نفسه

= الذي وقعوا فيه عن قصد او غير قصد وما ابعد ائمة الشيعة عن التصوف ولقد نهوا اصحابهم عنه واخبار النهي كثيرة حفظها الشيعة عن ائمتهم عليهم السلام وهي متظافرة . واما ان الصادق اخذ الكيمياء عن الفرس فهذا مصدره الجهل بمقام الصادق العلمي وسلسلة « حديث الشهر » ستأخذ على عاتقها كشف هذه النواحي من حياة الامام الصادق عليه السلام . « حديث الشهر »

الى الجزيرة العربية ، كما نقلنا ذلك عن «هولميارد». اما التأثير الفارسي فقد غالى فيه روسكا. نعم تذكر المصادر على ان جابراً ولد في طوس من اعمال خراسان ولكنه من اب عربي من قبيلة يزد وام عربية على مايظهر ، وقد ذهب الى الحجاز ليتعلم اللغة ويتفقه في الدين ، اما النزعة الصوفية التي يذكرها اسماعيل مظهر فهي من مستلزمات الامامة الشيعية(١) وهي واضحة جلية في جميع رسائل جابر. وقبل ان نقوم بانفسنا بعمل هذا الاستقصاء نرى من الضروري ايراد آراء «كراوس».

«كراوس» ومشكلة جابر

اعتنى «كراوس» بجابر عناية فائقة ، وليست هي عناية شاملة ، كما يذكر عبدالرحمن البدوي في كتابه «الالحاد في الاسلام» بل عناية تشمل العلاقة بين رسائله والاسماعيلية ،

---

(١) هذا اشتباه من الدكتور فان أئمة الشيعة عليهم السلام ابعد مايكونو عن التصوف بالمعنى المعروف وقد نهوا اصحابهم عن اتباع طريقة التصوف ويلوح لنا ان الاشتباه جاء عن طريق الخلط بين الزهد والورع وبين التصوف. «حديث الشهر»

ولقد قام ايضاً بنشر مختـارات عن رسائله ، وعنى ايضاً (كما ذكر مؤلف الالحاد) بان تكون مختارات النصوص ممثلة لمختلف نواحي مذهب جابر : ففيها نماذج لابحاثه الكيميائية ، ولابحاثه الفيزيائية الفلسفية ، كما ان فيها نصوصاً تتعلق بالناحية الدينية ، من شأنها ان تبين لنا الصلة بين آرائه وآراء الغلاة من الشيعة ، مما يرجح نسبة رسائل جابر الى الاوساط الشيعية الاسماعيلية . ذكر ايضاً المؤلف نفسه ان قدم لنا « كراوس » بحثاً عن جابر بن حيان باللغة الافرنسية ، ولا نريد ان نلخص الابحاث التي اتى بها ، بل نود ان نبحث عما له علاقة بموضوعنا وهو سرد نظرية « كراوس » من « تهافت اسطورة جـابر » التى تنفي العلاقة بين الامام جعفر الصادق وجـابر وذلك في الجزء الثالث من النشرة السنوية لمعهد الابحاث الخاصة بتاريخ العلوم الطبيعية في برلين عام ١٩٣٠ الذي كان لي حظ الاشتغال فيه مدة من الزمن .

يقسم « كراوس بحثه الى ستة اقسام :

١ ـ مصادر جابر .

٢ ـ ميزة مخطوطات جابر .

٣ ـ براهينه فى اثبات ان رسائل جابر متأخرة التاريخ .
٤ ـ تاريخ الاسماعيلية وتعاليمها .
٥ ـ تحليل رسائل جابر على ضوء التاريخ الدينى .
٦ ـ خلاصة البحث عند « كراوس » .
وها نحن نبدأ بتلخيص كل فصل من الفصول على حدة :

١ ـ مصادر جابر :

يذكر « كراوس » في البدء الرأيين المتناقضين في قضية العلاقة بين الامام الصادق وجابر رأي « هولميارد » الذي يؤيد العلاقة ورأي روسكا الذي ينفيها وينصب نفسه حكماً بينهما ، ويقول انه استعمل في بحثه المصادر الآتية :

١ ـ كتاب « و. هوداس م . برتلو » الكيمياء في القرون الوسطى ، وخاصة الجزء الثالث الذى يحتوى على نصوص من جابر وترجمتها .

٢ ـ رسائل جابر طبعها « هولميارد » في الهند عام ١٨٩١ مع ترجمتها الانكليزية ، وجميع هذه الرسائل ادرجت في فهرست ابن النديم .

٣ ـ صور فوطوغرافية عن كتب السبعين لجابر سعى بجلبها الى معهد تاريخ العلوم في برلين كل من « مايرهوف » في القاهرة «وريبنتر» في الاستانة .

٤ ـ كتاب الانتقال من القوة الى الفعل .

٥ ـ كتاب السموم .

٦ ـ كتاب الخواص .

٧ ـ كتاب تحقيق افلاطون .

وهذه الكتب الاخيرة نقلت من مكتبات القاهرة وارسلت الى المعهد المار الذكر ، وهناك ايضاً كتب ومخطوطات عديدة ادرجت اثناء البحث .

٢ – ميزة مخطوطات جابر :

ان الميزة التي تميز مخطوطات جابر وحدتها ، وسواء كانت من مؤلف واحد ام من عدة مؤلفين فلدى مطالعتنا اياها نستدل على انها تابعة لمدرسة واحدة ، وزمن تأليفها يلزم ان لايكون بعيد المدى . ان جميع رسائل جابر لها اسلوب لغوي وادبي موحد ، والعلاقة بين بعضها بعضا نجدها شديدة ،

وتشير كل رسالة من الرسائل الى الرسالة الاخرى ، ولا يمكن عد واحدة منها منتحلة الا اذا حكمنا على البقية هذا الحكم أما مواضيعها فالكيمياء والطب . ان الكتب التي تغلب عليها النزعة الكيميائية هي كتب السبعين وتحقيق افلاطون كذلك مجموعة المائة والاثنى عشر التى نشرها « هولميارد » أما التى تغلب عليها النزعة الطبية فهى رسائل السموم ، وفيها يظهر لمؤلفها قدرة خطابية ومعلومات جمة في الحيوان والنبات . بجانب هذه الكتب التى لها نزعة خاصة ، هناك كتب تتطرق الى مواضيع شتى مثل كتاب الخواص ، فاننا نجد في هذا الكتاب ترياق السموم وادوية منومة ومسكنة ووصفات لازالة الشعر وللدق وتعليمات خاصه لاستحصال الاصبغة والاحجار والدهانات والجواهر الصنعية . ولا تخلو أيضا من أشارات للتداوى بالرقي والسحر وبعض تجارب فيزيائية . ويظهر ان غرض المؤلف فيها اعطاء معلومات بعيدة المدى عن الكيمياء والطب وبعض أمور صناعية اخرى .
وليس فى مقدور المدقق معرفة ميزات هذه الرسائل اذا نظر اليها من وجهة العلوم الطبيعية والصناعية الصرفة ، اذ يلزم

معرفة تاريخ تطور هذه العلوم ضمن المدنية الاسلامية لاعطاء احكام مطابقة عن منبعها . ان جميع معالجات العلوم الطبيعية في هذه الرسائل تشير الى العلاقات الكبرى ولها معنى خاص ضمن اطار مجرى الافكار الفلسفية التي هي في الحقيقة نقطة انطلاق المؤلف وموطن قوته . اذ يقول دائما ان الاعمال لافائدة منها اذا لم تقترن بالعلم والقياس والبرهان .

ان اهم فكرة يعالجها هي العلة والميزان . يعالج فكرة العلة في كتابة الانتقال من القوة الى الفعل ، ويعود الى هذه الفكرة ايضاً في بقية الرسائل . بحث هذا الموضوع في نواح كثيرة من العالم ، فالافلاك تساهم بصورة فعالة في مصير الكون وحيث ما ولينا وجهنا ، في البسائط الاولى الى المظاهر المعقدة نرى سيطرة النظام شاملة . ولا يمكن فهم الكون الكبير الا على ضوء مبدأ العلية ، وليست الكيمياء والطب وغيرها من العلوم الا تطبيقات عملية لهذه المبادىء .

ان المبدأ الذي هو اشد اهمية و اصالة هو مبدأ الميزان لأن خواص الاشياء في مملكة الكيمياء قابلة للقياس ولا يكون تناسب المواد مع بعضها الا بنسبة عددية

اذا عاملنا «المرداسنج» مع الخل وحدث تغير، فلا يكون ذلك صدفة واتفاقاً . بل نظراً لطبيعة الاجسام الداخلية ، وان التغيرات المقصودة هي من وظائف التدابير الكيميائية ، فاذا كان لخواص الاشياء اساسات رياضية ونسب عددية كان للتفاعل صلاحية ووضوحاً . وهكذا فانجابراً يرى ان القياس اي النسب العددية في الاجسام والقانون الرياضي يسود الكون كله ، وهذا القانون هو الذي يعطي ترتيب الاجسام وانسجامها ، وهو المفهوم المجرد لعالمنا ، فالميزان رمز النظام في العالم ، فالفرضية السائدة عنده انه لا يوجد الا تفسير رياضي لخواص الاشياء ، وهو واضح وغير خاضع للتردد (اي يظهر بمظهر ثم يأفل فيظهر بمظهر آخر)

ان مؤلف رسائل جابر لا يعرف الا قانوناً واحداً يسود العالم كله ، فيستعيض عن المقولات العشرة لارسطوطاليس بمبدأ واحد واتجاه واحد وهو سيادة النظام الطبيعي او الميزان .

كان هناك تشابهاً بين المعتزلة ، اولئك المنورين الاسلاميين الذين جاهدوا ضد شرك المانوية والغنوصية والمعروفين باعداء

الشرك والقائلين بالتوحيد والعدل ، وبين مذهب جابر الخاضع الى ذلك التيار الذي لا يدين الا بالتوحيد معتنقاً مبدأ واحداً افضى به الى توحيد العلوم ، ويسمى هذا المبدأ الرياضي العالمي بالعدل ، وهو مفهوم معتزلي ايضاً . وقد اصبح لمثل هذه المفاهيم في رسائل جابر معان دينية عميقة ، لأن جابراً وهب لها صبغة غيبية (ميتافيزيكية) ، لم يصلنا مع الاسف مفهومها بين العقائد الاسلامية .

اننا هنا في الحقيقة في النقطة المركزية من اسلوب جابر لاننا نجد في جميع فصول كتبه اشارات عديدة نحو الميزان وان اكثر مؤلفاته تعالج هذا الموضوع ، حتى انه افرد له بحثاً خاصاً . اذا كان العالم الطبيعي والمؤرخ العصري يأخذه الذهول والعجب عندما يقوم بدراسة العقاقير التي عرفها جابر والآلات والادوات التي استعملها ، فان اعجابه ليزداد اذا درس التـأملات الفلسفية له ، لانها تشكل القوة الدافعة في رسائله ، لأن النتائج المادية التى نحصل عليها لا شأن لها بجانب اساليب تفكيره الفريدة .

ليست التأملات الفلسفية هي الوحيدة في الاهمية ، فللنزعة

الدينية اهمية اعظم . يكاد يقسم جابر بسيده جعفر في كل فصل من فصول كتبه : « وحق سيدي جعفر » ، « وحق سيدي وخالقي » وفي بعض الاحيان يقول صراحة : « وسيدي جعفر بن محمد » ان ما يقصده جابر هو ولا شك الامام الصادق ، الامام السادس للشيعة ، وجد جابر نفسه انه مدين له بالشكر في جميع علومه ، منه يأخذ وعلى توجيهاته يسير وبنصائحه يسترشد ، وكثيراً ما يحاوره . ويذهب ابعد من ذلك فيعتقد ان هذه العلوم هي علوم محمد الرسول وعلي بن ابي طالب وسيده « جعفر الصادق » ويرى جابر ان وظيفته تقتصر على تثبيت علومهم بالالفاظ ، وكثيراً ما يأتي بآيات قرآنية ويفسرها تفسيرات كيميائية ، وهو يطمح في الحصول على العلم الالهي ، على الآيات والمعجزات ، وهو يريد ان يكون للناس بشيراً ونذيرا للذين يفشون الاسرار ويهبون العلم لغير المستحقين . ان قسما عظيما من رسائله مكتوبة بلغة دينية ، وان الذروة في مجاهداته الانتقال من الامام المنظور الى الامام المستور .

اذا كانت رسائل جابر اصلية فيلزم ان نغير وجهة نظرنا

الى تاريخ الاسلام، ويلزم ان يكون جابر اول من نقل علوم الاوائل الى العرب ، ولكن المشكلة هنا ان تظهر امامنا في اول تاريخ الفكر الاسلامي شخصية كشخصية جابر باصلية ممتازة واستقلال عجيب وعلم غزير جداً مع معرفة فذة للادب اليوناني اذا كانت هذه الرسائل غير منتحلة فيلزم ان يكون هو الذي خلق اللغة العلمية وذللها قبل المترجمين الذين عاشوا في القرن الثالث الهجري والتاسع الميلادي ، فاستناداً على رسائله نجده يمثل نموذجاً من العلماء الذين لا نظير لهم في الحقب الاول من الاسلام ، فهو لا يعالج مسائل العلوم الطبيعية باسلوب يكاد لا ينتظر في القرن الثاني للهجرة والثامن للميلاد فحسب بل ان معلوماته في الطبيعة ترتكز على اسلوب فلسفي قائم بذاته ومتين ايضاً اما من وجهة تاريخ العقائد الاسلامية فاننا نجد ، عدا عن النزعة الشيعية الخاصة تعاليم معتزلية ، ومن المعلوم ان مذهب الاعتزال لم يبلغ اشده في ذلك القرن بعد ، من الضروري اذن تبديل كثير من المفاهيم اذا كانت مخطوطات جابر اصلية وقد دونت في القرن الثامن الميلادي . وهناك ادلة تشير الى ان

جابراً الف رسائله في ازمنة متأخرة .

٣- براهين كراوس لاثبات ان رسائل جابر متأخرة التاريخ

يشير « كراوس » على ان « روسكا » شك في بعض مخطوطات جابر وان دراسته حول جعفر اوصلته أيضا الى ان جابرا كان ينظر لهذا الامام كينبوع لا ينضب للمعرفة ولجميع العلوم السحرية . وقد رأى « هولميارد » أن في اكتشاف كتب السبعين حججاً جديدة له في أصلية جابر والعلاقة بينه وبين جعفر ، لأنهما متلازمان مع بعضهما لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر . وبالاستناد الى « شيدر » اعتمادا على كتاب البيان لجابر أتضح لكراوس ان رسائل جابر تحمل طابعا اسماعيليا . وقد قوى اعتقاد « كراوس » بهذه العلاقة الاخيرة ماطالعه من مخطوطات الاسماعيلية التي تعرف عليها بواسطة السيد حسين الهمداني نزيل بومباي ، وهي مخطوطات الفت في العهد الاول من الفاطميين ، وتعتبر حتى يومنا هذا على رأي كراوس ، ككتب تعاليم اسماعيلية أصلية ، ان كثيرا من هذه المخطوطات غير معروف في اوروبا ، وبعض منها جمعها كل من « غريفيتي »

«وايفانوف» وقام على دراستها المستشرق الافرنسي الشهير ماسينيون . قبل القيام في البرهنه على العلاقة الشديدة بين رسائل جابر والاسماعيلية يجب التصريح (نظراً للتعابير العلمية) بان مؤلف هذه الرسائل لا يمت بصلة الى جعفر الصادق او الى أحد المعاصرين له . ان اجلى مثال على التاريخ المتأخر لرسائل جابر ماجاء فيها عن تشريح العين، ونظراً لتدقيق كل من «بروفر» و« مايرهوف » حول تاريخ طب العيون في الاسلام ، نرى ان يوحنا بن ماسويه قد أورد أربع طبقات وثلاث رطوبات ، اما حنين بن اسحق فقد اورد سبع طبقات وان أسامى هذه الطبقات تشبه ماورد عند جابر ، فليس من المعقول ان يكون حنين قد أخذ هذه التعابير عن جابر ، بل ان العكس أصح .

٤- تاريخ الاسماعيلية وتعاليمها :

يشتق أسم الاسماعيلية من اسماعيل بن جعفر الصادق الامام السادس ، وهو نفسه يعد الامام السابع عند الاسماعيلية وهي التي سببت حركة القرامطة، ومنذ القرن التاسع الميلادى حتى القرن الثاني عشر كان دأب الاسماعيليين وديدنهم عمل

انقلاب سياسي واقتصادي في العالم الاسلامي . وقد كان معتقدهم ان الديانات الحالية يلزم ان يكون لها أساس فلسفي ، وهم يفسرون التعاليم الاسلامية تفسيرات رمزية لجعل مكان للتأويلات العقلية . ويرون ان التعبدات الخاصة في الاسلام يلزم الاستعاضة عنها بتعاليم اشتراكية التي يلزم ان تتدرج الى مراحل قدسية . كانت هذه الحركة موجهة ضد الدولة العباسية ، ولهذا السبب نفسه فأن العراق يعتبر مهدها، ولكنها تشعبت فيما بعد الى خراسان ، فسوريا ، فالجزيرة العربية ، فاليمن ، فمراكش . كان لهذه الحركة مبشرون يسعون جهدهم في اكتساب اتباع جدد وان أهم شخصيات أتصلت بها صلة قوية : هم الطبيب الرازي والفيلسوف الاندلسي ابن مسرة والمتصوف الحلاج . بعد ان أخفق مسعاهم في الدولة العباسية اتجهوا الى افريقيا ، فأسس عبيد الله استنادا على الفكرة الاسماعيلية القرمطية الدولة الفاطمية التي كانت فعاليتها الاساسية في مصر . رغم انسلاخ الفاطميين عن القرامطة فانهم اظهروا نشاطاً لامثيل له في العالم الاسلامي في حينه . وشكل الاسماعيليون في فارس والهند جمعيات سرية كان لها تأثيرات متبادلة في

الفكر الاسلامى انشائى وهدمى أيضا، وبسقوط دولة الفاطميين تتلاشى هذه التنظيمات ويستعاض عنها بطوائف صغيرة مثل الدروز والنصيريه وغيرها . ان ورثة الاسماعيلية الحقيقيين ظلوا محافظين على كيانهم ومشكلين جماعات كبرى في الهند والافغان وتركستان واليمن وافريقيا ، رغم كل تهديدات وتعقيبات ـ اما تعاليمهم نفسها فقد بقيت تعاليم سرية الى يومنا هذا ومن اجل ذلك لم يتسرب من مخطوطاتهم الى العالم الخارجي وخاصة اوروبا الا ما ندر . وما هو معروف عنهم هو من تدوين السنيين ، لأن تعاليمهم سرية فلم يكتبوا هم عن انفسهم . ومن اشهر الكتب المنسوبة اليهم هي رسائل اخوان الصفاء .

ان اهم نقاط تعاليمهم هي ان الله بعيد لا يمكن الوصول اليه وبخصائصه يؤثر في الكون ، وان ما تقمص منه هو الروح العالمي والعقل العالمي اللذان يشكلان مبدأ الخلق والتصوير ، ومن هذين العقلين تشتق الروح العالمية وهذه بدورها تؤثر على المادة . اذن هناك درجات ، فاحط الدرجات هى المادة وأعلى درجة في الكون هي الله . ومن مبادئهم الخمسة الزمن

والمكان . ان مرآة مجموعة حوادث الكون الكبير هو ما يحدث في العالم الصغير . ومن تعاليمهم الدينية الائمة السبعة التي تبتدىء بعلي وتنتهي باسماعيل بن جعفر الصادق ، وان التاريخ العالمي ينقسم الى احقاب يكون على رأس كل حقب دوما ناطق (يظهر قديما بصورة نبي وبعد ذلك بصورة امام) ، وفي الناطق تتجسم جميع المعارف الالهية بتفاوتها وارقي صورة فيها ، هؤلاء هم آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وينتهي بعد ذلك باسماعيل وهؤلاء ايضا هم الذين يمثلون العقل العالمي ، ولكل منهم مرافق ، يدعى الاساس ، فقد كان المرافق لموسى هارون ولعيسى القديس بطرس ولمحمد ختنه الامام علي ، ولكل نبي من الانبياء سبعة أئمة هم الذين ينشرون تعاليم النبي الى الاجيال المقبلة ، وعند انتهائهم يظهر ناطق جديد يقوم بتعاليم جديدة . وفي اوقات الازمات يكون الامام مخفيا ، فلا يعرفه الا اقرب القريب لديه ، وهؤلاء الأمناء هم الذين يجوبون الآفاق وينشرون تعاليم أئمتهم ويبشرون بها ، ويسمى هذا المبشر بالداعي او الباب او الحجة ، حسب الدرجة التي يكون

فيها قريباً من الله . وللوصول الى الذروة في الرتب الدينية درجات سبعة ، لكل درجة رموز فلسفية وتأويلات دينية . وان ارقى فكرة لديهم هي المهدي . اما التعاليم نفسها فهي سرية وافشاؤها يعد من الذنوب الكبرى مثل فك العقد الزوجى .

٥ : تحليل رسائل جابر على ضوء التاريخ الديني :

يورد كراوس عدة ادلة على ضوء التاريخ الديني لاثبات العلاقة الشديدة على زعمه بين الاسماعيلية ومؤلفات جابر :

١ : فكرة العدد وخاصة « السبعة » فنقلا عن كتاب الحجر الذي نشره « هولميارد » يذكر جابر ان « زوسيموس » يتكلم عن المبدأ السبعي ، ولا ينفرد هو في هذا المبدأ بل يتفق مع المنجمين الذين يزعمون ان عدد الكواكب سبعة من قضايا الفلك كله . اما قصده في بحثه الديني من المبادىء السبعة الائمة السبعة ، وهم الذين يتصفون بالصفات الآتية : اللواحق ، النقباء ، النجباء ، المقربون المؤمنون ، التوالي ، النطقاء ، المطلقون (ومن الغريب ان

تكون الصفات هنا ثمانية بدلا من السبعة) . وتنحصر مهمتهم في السياسة والتدبير ، وجميع الناس اتباع لهم . وهذا هو السبب لوجود سبع اقاليم ، ونص الشرع على وجود سبع سماوات وسبع اراضين . وفي كتاب الانتقال من القوة الى الفعل ان شكل المسبع هو شكل النار .

ان فكرة الائمة السبعة هي من صميم تعاليم الاسماعيلية ، ويذكر « كراوس » نقلا عن المقريزي (كما بين ده ـ اسي في رسائله حول دين الدروز) ، لأجل ان يبرهن الداعي على صحة مبدأ السبعة امام المريد يذكر له توافق فكرة الائمة السبعة مع الاعداد السبعة في الكون ، فالافلاك السبعة ليست الا رمزاً للائمة السبعة ، وللائمة مرافقون يدعون بالداعي .

يلعب كذلك العدد خمسة عند جابر دوراً كونياً ويعزو هذه الفكرة الى « فورفوريوس » و « امبذوكليس فأصل العناصر عندهما على رأي جابر (كما اورد كراوس) هي :

١ ـ الجوهر الاول الشريف .

٢ ـ الهيولى .

٣ ـ الصورة

٤ ـ الزمن .

٥ ـ المكان . وليس لها دور السبعة ، وهي من مواعظ الامام علي لاستحضار الاكسير ، وقد اخذ علي علومه عن الرسول العربي ، وقد علمها الامام بدوره للوصي الذي يدعى الاس او الاساس ، وهذه كلها على رأي « كراوس » اشارات اسماعيلية .

يرى كراوس ايضاً ان هناك ثلاث مفاهيم تدل على الاصل الاسماعيلي : ١) التناسخ ، ٢) الفيض ، ٣) التأويل ، حتى انه يذهب ابعد من ذلك فيصرح ان فن تفسير الكتب الدينية بالمعاني العلمية وابطال مفاهيمها الاصلية هي نزعة اسماعيلية فيشير الى الآية القرآنية من سورة البقرة : « الم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه ان اتاه الله الملك ، اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت ، قال انا احي واميت ، قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين » ، فيفسر هذه الآية جابر (على دعوى كراوس) انه ليس نمرود هو الذي يتكلم مع ابراهيم

بل امير المؤمنين علي الذي له القدرة على تسيير الشمس من المغرب الى المشرق . ويقول « كراوس » ان مثل هـذه التأويلات البعيدة تأتي نادراً في مؤلفات جابر ، ولكن نظرياته الكيميائية (على دعواه) هي من ضمن مجرى التفكير الاسماعيلي ، فان خواص الاشياء عندذلك الكيميائي القديم تنقسم الى ظاهرية وباطنية ، ومن الاساسات الباطنية عنده علم الميزان ، التي هي خواص الاشياء الجوهرية . والاسماعيليون كذلك لا يكتفون بالتفسيرات الظاهرية ، بل يتجهون اتجاهاً باطنياً توصلا الى العلوم الخفية ، وهذا هو سبب تسميتهم بالباطنية ، بما يقابل غيرهم اهل الظاهر .

يذهب « كراوس » ابعد من ذلك في دعواه ويقول : « يتفق جابر مع الاسماعيلية فى اعطائه تفسيرات دينية عن علاقة الاشياء بعضها ببعض علاقة كيميائية حتى في الجزئيات الصغيرة » فيعطي جابر مفهوم الامام للاكسير وحجر الحكماء ويقسم العوالم الى ثلاث : العـالم الكبير ، والعالم الصغير (الانسان) ، وعالم الامام وهو عالم الاكسير ، ويعني بذلك الرابطة بين العناصر الاربعة ، وهو ازلي ، وقد يكون حجر

الحكماء قبل الخليقة .

يرى « كراوس » هذه التفسيرات في كتاب احمد حميد الدين الكرماني المعاصر للخليفة الفاطمي الحكم الذي يقسم العوالم الى ثلاث ايضاً : العالم الكبير والعالم الصغير والعالم الديني الذي يجد ذروة كماله في الامام . ولما شابه جابر فكرة الامام بحجر الحكماء اضطر ان يجعل عالمه من عالم الكيمياء . ينقلنا « كراوس » بعد ذلك الى فكرة رؤية الامام زاعماً انها اتت مؤخراً لاتصالها بغيبة الامام الثاني عشر ، وفكرة الناطق والصامت المتأخرة ، ويظن ان تفسيرات عذاب النار التي ورد ذكرها في القرآن بالتكليس هي من قبيل التفسيرات الاسماعيليه .

لا يكتفي « كراوس » بالمقارنات فحسب بل يحاول اعطاء تاريخ مضبوط ـ على زعمه ـ عن الزمن الذي حررت فيه رسائل جابر وذلك من فكرة ظهور الامام في زمن المفاسد والاضطرابات والثورات وسقوط الدين وهرب العلم الى العزلة لحصول النجاة بالعلوم الباطنية ، ويضع « كراوس » تاريخ هذه النبوءات قرب سقوط حكم العرب الذي كان

عام ٩٢٨ (ولعله يقصد بذلك سقوط الدولة العباسية) ، ويستنتج من ذلك ان تحرير هذه الرسائل يلزم ان يكون قبيل هذا التاريخ .

خلاصة البحث عند كراوس

بتحديد « كراوس » الزمن الذي الفت فيه رسائل جابر يلزم ان يكون قبيل عام ٨٦٠ م . أي في نهاية القرن التاسع ، وهناك دلائل من تاريخ الديانات تبرهن على انها الفت في نهاية القرن التاسع أو مطلع القرن العاشر ، لأنه من اتباع الاسماعيلية التي تثبتت تعاليمها في منتصف القرن التاسع ، وعلى كل يلزم ان يكون قد عاش قبل عام ٩٨٧ م اي قبيل تأليف الفهرست لابن النديم ، وكذلك قبل ابن وحشية صاحب كتاب الزراعة النبطية الذي الف كتابه عام ٩٥٠ وهو مدين في كتابه لتراجمة القرن التاسع .

من المهم عند كراوس تدقيق فكرة الامام لمؤلف الرسائل الذي يعبر عنها بالناطق ، ويعتقد ان هذا الناطق هو عبيد الله المهدي بالله ، ويصرح انه يلزم اعارة الاهتمام لكتاب

البيان ، لأنه استنادا على ماسينيون يحدد تاريخ ظهوره عام ٩٠٢م الذي فيه اعلان عن ظهور المهدي المنتظر ، ويعزو تأليفه لغياث وهو أسم لشخص متكتم . لا يدعي « كراوس » اتفاق كتاب البيان لجابر وكتاب البيان لغياث ، ولكنه يرى ان الكتابين يحملان نفس الطابع ونفس العنوان ، ويزعم « كراوس » ان معنى البيان المهدي .

يتساءل « كراوس » بعد كل هذه المطالعات ، ومن عساه يكون مؤلف مخطوطات جابر؟ فيجيب على ذلك قائلا : « لاشك اننا امام شخصية فذة ، لأن مؤلفاته تحمل طابع الاصلية في العلم وهو متعلق من أسلافه ويعتبره العالم ككيميائي فريد ، وقد نوه عنه كثيرون من مؤلفي أوربا في القرون الوسطى » ، يشير كذلك « كراوس » الى أهميته من أجل حركة القرامطة استنادا على ابن النديم ، لأنه يعتبر عند الشيعيين الذين عاشوا في القرن الثامن كحجة او باب أي أنه من الرجالات الذين كانوا على اتصال روحي وثيق مع الامام علي ، وهو من القلائل الذين اتيح لهم رؤية الامام ، ومما لاشك فيه انه من دعاة الاسماعيليين .

يطرح كراوس سؤالا آخر فيقول : لماذا لا يعلن المؤلف عن أسمه فتعزى مؤلفاته لاحد تلاميذ جعفر الصادق ؟ ان الجواب على ذلك عند كراوس ليس بالصعب ، وذلك لأن لجعفر الصادق مكانة مرموقة عند الاسماعيليين ، وهو الاب الحقيقي لمؤسس مذهبهم ، ولدي دراسة الآثار الاسماعيلية نكاد نقرأ أسمه في كل صحيفة من كتبهم ، واليه تعزى مقابلات عدة مع ابى حنيفة وانس بن مالك وغيرهم من الأئمة العظام ، وان تعاليمه انتقلت الى أطراف العالم ، ويعزى اليه الاشتغال بالعلوم الخفية ان الكتاب الذي نشره يوليوس « روسكا »عن جعفر الصادق في الكيمياء لايمت الى الامام بصلة وهو من عهد الخليفة الفاطمي الحكم ، ويحمل طابع الاسماعيلية بكل وضوح .

يقول « كراوس» من المحتمل ان يكون رجلا يدعى حيان قد عاش في القرن الثامن الميلادي ، ولكن ليس عندنا اى دليل على ان هذا هو الاب الحقيقي لمؤلف هذه السلسلة الطويلة من كتب جابر ويذكر ان ابن النديم يقول ان جابرا لم لم يعش قط . واذا كان كل من « ستابلتون » و « هولميارد »

برهنا على وجود مصادر عربية حول حيان ، فانها لا تثبت وجود جابر . اما هذه المناسبة بين جابر وجعفر فهي على رأيه مختلفة ، رغم ان هذه الرسائل من وقت متأخر ، فأن تأثيرها كان عظيما . ولقد نقل صاحب مؤلف غاية الحكيم المنتحل المجريطي كثيراً من اقوال جابر ، وانتقلت هذه الاقوال الى اوربا ثم ترجمت الى اللغة اللاتينية .

لم تكن مجموعة رسائل جابر وحدها هى المسيطرة في الاسماعيلية ، فلقد وجد فى مجرى القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي رسائل اخرى (على دعوى كراوس) تشبه الرسائل الاولى ، وهذه تعرف برسائل اخوان الصفاء ، لها الصبغة العامة في العلم ، وهي اما قوية الاتصال بالاسماعيلية او متأثرة منها الى حد بعيد . لهذه الرسائل أهمية من الناحية الثقافية التنويرية ، وقد ادرك المستشرق « غولدتسير » الصبغة الاسماعيلية لهذه الرسائل ، وسعى الهمداني ليثبت هذه العلاقة أيضا بمقال نشره في مجلة الاسلام الالمانية باللغه الانكليزية بعنوان « الدعوى الاسلامية الطيبة في رسائل اخوان الصفاء » ، ويقول « كراوس استنادا على الهمداني

ان الفصل الواحد والخمسين من رسائل الاخوان تبحث عن التنظيمات الخفية بطرز يشابه رسائل جابر ، ولا يقتصر هذا التشابه على هذا الفصل فحسب بل يتعداه في كل فصل من الفصول التي تبتديء بشروح دينية ودعاية اسماعيلية شبيهة بمؤلفات جابر . ويجد « كراوس » ان العلم والفلسفة هما القناع، والمراد الحقيقي الدعاية للمذهب وقد جعلت الاسماعيلية رسائل اخوان الصفاء من كتبها الاساسية وتذهب الى الامام احمد في خلافة المأمون ، كما تنسب رسائل جابر الى جعفر الصادق .

اذن لدى « كراوس » تتشابه النزعتان ، بيد ان لها عنده وجوه اختلاف : ان اسلوب اخوان الصفاء هو اسلوب بسيط ومفهوم من الجميع وان الشخصية فيها مستترة . اما رسائل جابر فأن الميزة الشخصية تظهر بكل وضوح وفي كل آونة ، والمؤلف كيميائي وطبيب ، ويشاهد ضعفه اذا عالج موضوعا آخر . اما رسائل الاخوان فلها صبغة عامة ، وهكذا بتعاقب السنين تأخرت رسائل جابر وانتشرت رسائل الاخوان عند الاسماعيليين ، ويعزو بعض المدققين السبب لابتعاد الاسماعيلية

الفاطمية عن حركة القرامطة ، ولكن الحقيقة (كما ينوه بها كراوس) هي ان رسائل جابر مقدمة لرسائل اخوان الصفاء .

هذه هي ملخص آراء « كراوس » الذي يعتبر حجة في مشكلة جابر ، واننا قبل ان نقوم في دراسة المواضيع التي ذكرها جابر نقلا عن الامام جعفر الصادق وتمحصها تمحيصا علميا ، نرى لزاما علينا ابداء نقدنا لبيانات « كراوس » لان فيها من التناقضات والسطحية في الحكم شيئا كثيرا .

نقد آراء كراوس

يقول « كراوس » اننا اذا قبلنا ان رسائل جابر غير منتحلة ولها صلة قوية بجعفر الصادق ، فيلزم ان نغير وجهة نظرنا لتاريخ الفكر الاسلامى . وانا نقول ردا عليه ، ومالذى يمنع ذلك ؟ هل هناك عقيدة ثابتة في التاريخ يلزم ان نخضع لها خضوعا أعمى ، او ان احكامنا يلزم ان تنطبق وفق الدراسات ، ولا يهمنا سواء بدلنا مفهومنا أو لم نبدله ، اذ ليست للفرضيات فى العلوم حدودا جامدة لا يمكن اجتيازها وتعديلها ، بل ان رائدنا البحث والتنقيب ، ولا يمنعنا اذا

اقتضى الامر ان ندك الفرضيات ونستعيض عنها باخرى حديثة اذا كانت أشد انطباقا على الواقع والتحريات الحديثة ان « كراوس » ليعجب باللغة ولا يأتينا بأى دليل عن مصدرها طالما هى متأخرة ، حتى انه لا يقارنها باساليب سالفة كانت نموذجا لها ، فهل هي من مبتكرات ذلك العصر؟ واذا كان الامر كذلك فما هو الدليل ياترى على ذلك ؟ او هى من عصور سابقة ؟ ان الشيء الغامض في اسلوب جابر كيفية الترجمة عن اليونانية ، ولكن يزول شيء من الغموض اذا علمنا ان الترجمة لم تبتديء في القرن الثالث الهجري والتاسع الميلادى ، بل هناك ترجمات منفردة . كما أثبت البحث والتحقيق ترجع الى العهد الاموي نفسه عهد عمر بن عبد العزيز

ان نفوذ المعارف اليونانية الى الحضارة الاسلامية (كما يعلم كل من اشتغل في تاريخ العلوم) ، كان من الاسكندرية الى بغداد عبر المدارس السريانية في الرها ونصيبين ورأس العين وغيرها من المدارس حتى ان مدرسة جندي سابور التى أسسها كسرى انشروان تابعة لتلك المجموعة . ويقول « اشبنجلر » في كتابه سقوط الغرب ان مبدأ العلوم العربية

لم يكن في عهد الخلفاء الامويين ولا العباسيين ، بل يرجع الى القرن الرابع الميلادي الى مدارس الاديرة السريانية . حتى ان صلة العرب بهذه المدارس قديمة جدا . ويحدثنا ابن ابي أصيبعة في كتابه عيون الانباء في طبقات الاطباء انه كان لمدرسة جنديسابور اثر كبير في انتقال العلوم الى العرب في العهد العباسى ، ولم تنقطع الصلة في العهد الاموي والذي قبله وان افراداً قلائل درسوا الطب في تلك الجامعة من بينهم الحارث بن كلدة الذي عاصر النبي (ص) وبقى حياً حتى ايام معاوية بن ابي سفيان ، فما الذي يمنع اتصاله ايضاً بالامام علي واولاده ؟ اذن ان الصلة بين تراث الاوائل والمدنية الاسلامية قديمة جداً ، حتى ان مؤرخي العلوم يذكرون مدرسة الاسكندرية التي انشأها الاسكندر عندما طمح في فتح العالم ودخل مصر غازيا ، وكانت هذه المدرسة لا تزال قائمة الى ان فتح العرب مصر . بيد ان معرفة الاخصائيين للحياة العقلية في الاسكندرية بعد القرن الخامس الميلادي ضئيلة جداً ، وقد كان المؤرخون يتهمون عمر بن الخطاب بحرق المكتبة في هذه العاصمة الثقافية ، ولكن البحث

والاستقصاء اثبت بطلان هذا الزعم ، ويظهر نشاط هذه المدرسة الايجابي في عصر قبل الاسلام في تكوين تلاميذ مشهورين من بينهم يحيى النحوي والفيلسوف « سرجيوس الراس عيني » والطبيب « اتيوس الامدي » وغيرهم ، وقد نسج المؤرخون ومن بينهم ابن القفطي وابن النديم حول شخصية يحيى النحوي خرافات عديدة ويعرف الباحثون اليوم ان هذا العالم الهليني مات قبل الغزو العربي لمصر بقرن تقريباً ، وكان من الخطأ قرن عمرو بن العاص مع يحيي النحوي وعلى كل فان ذكر هذا العالم عند المؤرخين القدماء لدليل واضح على معرفة العرب الاولين الدور الذي لعبته هذه المدرسة في انتقال علوم الاوائل في العصر الاسلامي الاول حتى ان « كراوس » نفسه يثبت لنا صلة قوية بين كيمياء جابر وكيمياء المدرسة الاسكندرية ، كما بين لنا ذلك في الجزء الثاني من كتابه الذي نشره باللغة الافرنسية عن جابر وان نهج بعد ذلك منهجاً مستقلا . زيادة على ذلك فان مدرسة جندي سابور كانت مشتهرة منذ اوائل الدولة العباسية ، فقبل ان يقوم المأمون في تأسيس بيت الحكمة

كانت تلك المدرسة الطبية مشهورة في بغداد ، فقد استشار المنصور « جورجس » رئيس اطباء جندي سابور حينما اراد بناء بيمارستان في العاصمة العباسية « فجورجس بن جبرائيل » هو اول طبيب استدعي الى بغداد ، وقد كان مجيؤه في سنة مائة وثمان واربعين اى في نفس السنة التي مات فيها الامام جعفر الصادق ، واذا كان اطبـــاء السريان اشتهروا في بغداد واشتهرت مصنفاتهم (كما يروي لنا صاحب الطبقات) في ذلك الزمن ، فلابد ان تكون صلتهم بالعاصمة العباسية كانت قبل ذلك ، والا فليس من المعقول حصول الشهرة حالا حين حصول الصلة واذا خفي علينا وجود بعض آثار يونانية مترجمة فذلك لا يمنع وجودها طالما الصلة بين المترجمين كانت وثيقة في عهد الامام الصادق نفسه .

يدعي « كراوس » ان في رسائل جابر وحدة لا انفصام لها بحيث اذا اثبت ان واحدة منها منتحلة يلزم ان يسري هذا الحـكم على الرسائل كلها ، ومن ناحية اخرى نجد المواضيع مختلفة ، فما هي يا ترى تلك الوحدة التي تضم هذه المعارف المتباينة ؟ ان كان يعنى الروح الاسماعيلية السائدة

في الرسائل فان ذلك وحده لا يكفى ولا يشكل هذا الانسجام فيلزم اثبات الوحـــدة من التحري العلمي . اما المعلومات البعيدة المدى فيلزم ان تصـــدر عن عالم بعيد المدى لنعلم الى أى حد من الحدود وصلت الرسائل في سويتها العلميـــة ، وما هى الافكار التى كانت سائدة في عصره وما هي القضايا المبتكرة التى أتى بها ، وكان عليه الاستعانة بعلماء درسوا الكيمياء والطب أيضا وعرفوا تاريخها حق المعرفة . حتى اننا لنستغرب عدم دراسته مواضيع العلوم الطبيعية من نقطة النظر العلمية المحضة ، تلك النقطة التي تهم العالم الطبيعي والمؤرخ للعلوم . ان سيادة روحية خاصة هي قضية ثانوية بالنسبة للعلم وتاريخه ، ولـكن السوية العلمية التى كانت سـائدة في ذلك العصر هي الاهم . ولقد قمت بنفسي لاحصاء مادونه جابر في الجواهر من كتبه الخواص والسموم ، فوجدت أشياء عديدة لها ميزة خاصة جمعتها ضمن رسالة خاصة عن تاريخ علم المستعدنات قدمتها الى الاكاديمية البروسية . وقد ذكر « هولميارد » في كتابه الذي نشره باللغة الانـكليزية بعض أمور هامة عن معارف جابر الايجابية

ولا انسى ما اثاره روسكا عند ما نشر في مجلة الكيمائيين الالمانية التى تصدر في برلين عن آراء جابر اعتماداً على كتاب الخواص في صبغ الجلود موضوعاً عنوانه « وصفات لصبغات الجلود من عهد شارلمان »

ان لجابر اسلوباً لا يشبه اسلوب المؤلفين الذين عاشوا في القرن التاسع الميلادي والقرن الثالث الهجري . اذا قارنا بين اسلوب جابر واسلوب كل من الجاحظ الادبي ويعقوب بن اسحق الكندي لوجدنا الفرق شاسعاً ، فاسلوب الكندي لا يشبه اسلوب جابر من حيث التنسيق الرياضي ومحاولة البقاء في الموضوع . اما الجاحظ (فكما كنت بينت في موضوع عن الكندي فيلسوف العرب والعالم الطبيعي الفذ) ، فنجده رغم تفكيره العميق لا يثبت على فكرة واحدة نعم انه كان يستند على المنطق والمشاهدة في جزئيات الامور ، ولكنه في كلياتها كان بعيداً عن روح التنسيق ، كثير التهكم محباً للانتقال . وإذا رأينا حب هذا الانتقال من صفات رسائل جابر فانها تختلف عنها بروح الرزانة السائدة عند الاخير ، نظراً للمواضيع الجدية

التي يعالجها . ان الجاحظ واضح في اسلوبه اما جابر فغامض. اذن ليس عندنا اي كاتب من كتاب القرن الثالث الهجري يجدر ان يكون نبراساً لجابر . حتى اننا لا نجد اي صلة بين كتاب الاحجار المنسوب لارسطوطاليس والذي هو احد ثمرات المترجمين في القرن الثالث الهجري وبين الاحجار التي يعالجها جابر نفسه . كذلك لا نجد اي صلة بين الجغرافيين الذين عاشوا في ذلك العصر امثال ابن خرداذبة والهمذاني وغيرهم وبين رسائل جابر .

اننا لنذهب ابعد من ذلك ونأتي ببرهان واضح على ان قضايا الكيمياء كانت قبل القرن الثالث ، ودليلنا على ذلك اننا نجد يعقوب بن اسحاق الكندي يحدثنا عن الكيمياء وقد الف رسالة عن كيمياء العطر ويوجد منها نسخة مخطوطة في الاستانة ويذكر لنا المسعودي في مروج الذهب ان الكندي الف رسالة ينقض فيها الكيمياء (اي امكانية انقلاب العناصر) وان هذا ليدل دلالة ساطعة على ان مشاكل الكيمياء كانت قبل الكندي ، لان الشيء لا يمكن ان يشكل مشكلة الا بعد ان يمضي عليه حقبة من الزمن ان هذا الكتاب على مايظهر

مفقود ، والا لأطلعنا على امور خفية عنا ، فعلى ذلك فان الاحتمالات قوية جداً بان تكون رسائل جابر قديمة وان احتوت على بعض الزيادات في عصور متأخرة . اما اذا كانت متأخرة فلابد لنا ان نأتي بدليل عن مصادرها الاسلامية . اما النزعة الاسماعيلية لجابر فلا تدل على تاريخ متأخر ، لانه قدغاب عن خاطر « كراوس » مكان استمداد الاسماعيلية انفسهم من كتب جابر أو ان كليهما يستمدان من مصدر واحد ، سيما وان جعفر الصادق هو الاب الحقيقي لاسماعيل الذي ينسب اليه مذهب الاسماعيلية ، وقد مات اسماعيل في حياة والده ، فاذا وجدنا تشابها بين النزعة الاسماعيلية وبين رسائل جابر ، فان ذلك من البديهي لان كليهما يستقيان من نبع واحد الا وهو الامام الصادق نفسه .

لاصحة لما يدعيه « كراوس » بنزعة الاعتزال عند جابر لقوله في العدل واعتبار الميزان هو الاساس الحقيقي في الكون لأن رسائل جابر تقر بسلطان المعجزة وخوارق العادة والمدد من الالهام الالهي ، فلا تدع العقل مسيطرا في جميع امور الدين ، كما يفعل المعتزلة . ولماذا لانسمى هذه النزعة نزعة

اسماعيلية جعفرية ، طالما تفسر رسائل جابر العقائد والتعاليم الاسلامية تفسيرات رمزية ، لتجعل مكانا للتأملات العقلية واذا دققنا بامعان نشاهد ان فكرة العدل والميزان موجودة عند الامام جعفر الصادق نفسه ، كما سنبين ذلك فيما بعد .

كيف تكون التعابير العلمية دليلا على ان مؤلف مؤلفات جابر يجب ان لا يكون من معاصري الامام جعفر الصادق، طالما ليس عندنا أي دليل على تاريخ بدء الحركة العلمية بصورة مضبوطة . وانا لنجد من تناقض في افكار « كراوس » طالما يجد هذه الكتب منتحله ، ومن ناحية أخرى تسود فيها روح الوحدة بحيث لواثبتنا انتحال واحدة منها يسري هذا الحكم على الجميع، ثم يقول ان كتاب الانتقال من القوة الى الفعل كتاب أصلي ، فما هذا التناقض في القول ؟! ينفي « كراوس » وجود شخصية مثل شخصية جابر ، ثم يقول انه يعتبر حجة عند الشيعة الذين عاشوا في القرن الثامن ، وكيف يعتبر حجة في هذا القرن وهو يحاول ان يثبت انه عاش في عصور متأخرة ومن ناحية يقول انه طبيب وكيميائي ومن ناحية ثانية يقول من لم يعرف رسائل جابر من وجهة الفلسفة والمذاهب الدينية

فلا يعرف شيئا . بالمقارنة بين رسائل جابر ورسائل اخوان الصفاء يقول ان شخصية اخوان الصفاء مستترة ، اما شخصية مؤلف الرسائل فبارزة ، فكيف يصح هذا البروز مع كتمان الاسم والاختفاء وراء شخصية منتحلة ، سواء أكانت عاشت فيما سبق أم لم تعش ؟

لقد بحث « كراوس » في عقائد الاسماعيلية ولكنه لم يبحث مطلقا في مذهب الامام جعفر الصادق ، فأن وجود التشابه وحده لا يمنع من وجود التشابه مع المذهب الجعفري ، ولاجل أثبات عدم وجود أي صلة كان يلزم عليه نفي الصلة بتاتا بينه وبين جعفر ، وان مثل هذا العمل لم يقم به أصلا .

ذكر « كراوس » طبقات العين عند جابر ، وقد جعلها مقتبسة من كتاب يوحنا بن ماسوية وحنين بن اسحق ، فطالما كان المصدر يونانيا فأي شيء يمنع ان تكون رسائل جابر هي السابقة ؟ وفضلا عن ذلك فأن رسائل جابر نوهت بذلك تنويها ، ولم تقم بتشريح العين مفصلا ، كما فعل كل من يوحنا وحنين ، ونظرا لقانون التطور لا يمنع أسبقية جابر طالما ان الشيء يبدأ صغيرا ثم يكبر . ان محاولة البرهان على

صلة الوصل بين الاسماعيلية والرازى وابن مسرة والحلاج لا يدل على نفى المصدر الجعفرى ، وكذلك الامر فى المقارنة بين هذه النزعة والافلاطونية الحديثة التي هى ايضا من منبع شرقي ،وكل واحدة منها تقول بنظرية الفيض والوحي والالهام وهذه الفكرة هيمن مفاخرانتاج الشرق ، لأنها أساس فكرة الذرة الروحية عند « لايبنيز » والتي نرى جدورها عند فيلسوف العرب الكندي ان اكبر دليل على وجود مصادر غير المصادر الاسماعيلية ارجاء فكرة القدماء الخمس الى الحرانيين والصابئة . لايمكننا ان نتخذ قدسية الاعداد السبعة دليلا على ان مؤلفات جابر اسماعيلية ، لسيادة هذه العقيدة في مذهبهم ، لان هذه الفكرة موجودة في القرآن ولا يمنع وجودها عند جعفر نفسه ، لأن اسماعيل ولد جعفر وقد ماتفي حياة والده ، كما بينا . لاثبات ان قدسية الاعداد السبعة بدأت في عصور متأخرة عند الاسماعيليين يقتضى البرهان على تاريخ هذه الفكرة واقدم زمان انبثقت فيه ، واذا لم نعمل ذلك فكل حكم منهذا القبيل هو رجم بالغيب.

ان مذهب التأويلات ليس بمذهباسماعيلي فقط ، بل اننا

نجد ذلك حتى عند الفيلسوف الاندلسى ابن رشد الذي لا يعلم شيئا عن الاسماعيلية كما يظهر، وقد عقد بحثا في كتابه الشهير « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » ، تكلم فيه طويلا عن التأويل ذاكرا ان للشريعة ظاهرا وباطنا والظاهر هو ما كان للجمهور الذين يجهلون طرق البرهان والباطن هو لاهل التأويل ، ويختلف الباطن عند كل من ابن رشد وجابر فابن رشد يشير الى القواعد المنطقية ، اما جابر فيشير الى الالهام الربانى المستمد من الامام

ان التأويل الذي يسرده جابر عن تفسير « ان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » الواردة فى القرآن حكاية عن ابراهيم ونمرود ، من وجهة فلكية ، اذ يقول في رسائله : « يا أخي أسمع ما اتيتك به من علم الافلاك وطرائف اعمالهـا الخارجة من القوة الى الفعل . لا بعناية قول من يرمز فيها ويعدل عن الطريق في الافصاح ـ . المسمي فلك البروج قطعة واحدة منقسمة من جهة طبعها اثنى عشر قسما ، فيصير ثلاثمائة وستين جزءا وهو يسير من المغرب الى المشرق على كرة الارض بحركة خفيفة ، وفوق ذلك فلك الكل

وهو الاثير ، وهو يسير بضد ذلك ، لأنه يسير من المشرق الى المغرب . ثم فلك الكواكب المتحيرة سبعة أفلاك بعضها داخل بعض ، فاعلاها واعظمها زحل وأصغرها وأسفلها القمر ، وهو يسير من المغرب الى المشرق بحركة ظاهرة للحس ... انا لو سألنا مائة الف من الناس : من أين تطلع الشمس ؟ لقال من المشرق وتغرب في المغرب » وذلك اذا سمى المشرق مشرقا والمغرب مغربا انما هو بالاضافة الى الشمس ، والا فالواجب على ما حكينا ان يكون المغرب مشرقا والمشرق مغربا . وهكذا يضع جابر الامام علي كرمز المعرفة فيبين شروقها في المغرب وغروبها في المشرق ، فليست الشمس اذن قد غيرت دورتها كما يعتقد بذلك « كراوس » ، بل ان الفلكي قد صحح رأية وايضاحا لذلك يضرب جابر لنا مثلا بصعود الرحل الذي يدير الدولاب كيف يرى الاشياء تتحرك خلاف دورانه وتصحيح ذلك ان الاشياء لا تسير الى الخلف كما نتوهم ، ويشبه ما يضربه لنا جابر بحركة الاشياء للجهة المعاكسة عندما نمتطي القطار أو السيارة ، فما توهمه « كراوس » من قدرة الامام الخارقة للطبيعة لا أصل لها ، بل أراد جابر ان يفسر أمورا فلكية

طبيعية مشيرا الى اننا نرى اتجاه الحركة خلاف الحقيقة ، وكأن جابر بهذا الرمز يشير الى حركة الارض ووقوف الشمس خلافا للمعهود ، فليست سيطرة الامام في خرق القوانين بل التعمق بها وفهم مضمونها لا الاكتفاء بظواهر الاشياء .

اذا كان يدعي « كراوس » ان كل اشارة الى الباطن معناه اسماعيلي ، فلماذا لا يبرهن ايضاً بأن القرآن اسماعيلي لأنه يوجه كثيراً نحو الباطن وعاتب الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وقوله : « ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب » وغير ذلك ، بل يجب على مدعاه ان تكون جميع الحركات الصوفية في المشرق والمغرب حركات اسماعيلية لاعتمادها على الباطن .

ان فكرة الميزان هي من القرآن ايضاً بدليل الآيات الكثيرة : « عالم الغيب والشهادة لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والارض ولا اصغر ولا اكبر الا في كتاب مبين » فنسبة لتعاليمه ليس هناك اي صدفة واتفاق ، بل كل شيء بحساب ، « وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا

بقدر معلوم » ، « والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل شيء موزون » ، اذن ان فكرة الميزان هي عريقة في الاسلام ، كما صرح القرآن ايضاً « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » .

بعد ما بيناه لا عجب اذا قام جابر بن حيان ابو الكيمياء في العراق ، وتكلم عن العدالة في الكون زاعماً ان تراكيب الاجسام واتحادها مع بعضها داخل ضمن العدل الالهي . ولا غرابة ان يكون امام من الائمة امثال جعفر الصادق جعل العدل من جملة الآيات الربانية الموجودة في الكون ، فما لا شك فيه ان امثال هذا الامام قد درس القرآن دراسة متقنة وفهم اشاراته ورموزه فيها جيدا . ولا يبعد ايضاً ان يكون جابر قد تلقن مبدأ العدل (١) في الكون من الامام الصادق لأنه عالج هذا الموضوع معالجة جدية ، كما

---

(١) ان العدل اصل من اصول مذهب الامامية الاثنا عشرية وقد تابعهم المعتزلة في ذلك .

سوف نرى ذلك عند الكلام عن سيطرة الروح الجعفرية في رسائل جابر .

حتى اننا لا نستبعد اقتباس هذه المبادىء عن الرسول الاعظم (ص) وتلقينها للامام علي (ع) وانتقلت عن طريقه للامام الصادق (ع) والائمة الذين اتوا من بعده ، طالما هي موجودة بصورة واضحة في القرآن .

يدعي « كراوس » ان للاسماعيليين تفسيرات كيميائية دينية ، فأي فرقة من هذا المذهب اعتنت بذلك . واي نصوص عدا عن رسائل جابر ورسائل اخوان الصفاء تحمل هذا الطابع . واذا كان هناك نصوص متأخرة افليس من المحتمل ان تكون رسائل جابر نفسها نموذجاً لها . واذا لم نتمكن ان نبرهن على وجود نصوص سابقة لهـا ، فكيف يمكننا الجزم بانها اسماعيلية متأخرة ؟

في اي كتاب وجد يا ترى اعطاء مفهوم جديد للامام بمعنى حجر الحكماء والاكسير ؟ اننـا لم نر هذا المفهوم في الكتب التي نشرت او المخطوطات التي وصلت الى ايدينا وقد رأينا فكرة السيطرة والعلم بالخفايا التي تجهلها العامة ، او

كما تواتر عن الامام زين العابدين :

يارب جوهر علم لو ابوح به
لقيل لي انت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي
يرون اقبح ما يأتونه حسنا
اني لأكتم من علمي جواهره
كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا

هنا الدليل الواضح على المفهوم الباطني الذي تسرب بعد ذلك الى رجال الكيمياء في صورة بطلهم الالمعي جابر بن حيان ، وقد روي عن جعفر كما افاد بذلك الشيخ محمد الخالصي ان مداركنا وقياساتنا قاصرة عن ادراك اسرار الشريعة وحقائق الدين وسنن التشريع ، وان الامر ليتضح لنا اكثر من ذلك عندما نعلم ان من كانت له الزعامة الدينية يحيط علماً بجميع الموجودات وان يكون له الحظ الاوفر من العلم عما غاب عن الحس الانساني واختص بالملأ الاعلى . وقد ذكر لنا الشهرستاني في كتابه الملل والنحل ونقلها المؤلف السابق وهو ان الصادق ذو علم غزير في الدين « ... وقد اقام

في المدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين اليه ويفيض على الموالين له اسرار العلوم ، ثم دخل العراق ، واقام بها مدة ما تعرض للامامة قط ، ولا نازع احداً في الخلافة ، ومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شط ، ومن تعلى الى ذروة الحقيقة لم يخف من حط ، وقيل من انس بالله توحش عن الناس ومن استأنس بغير الله نهبه الوسواس. »وطبعاً ان مثل هذه التأملات الدينية العميقة تعلمها جابر بن حيان من معلمه الامام جعفر الصادق .

لماذا نقول ان رسائل جابر هي من تأليف احمد حميد الدين الكرماني المعاصر للخليفة الحاكم الفاطمي (كما يريد كراوس ان يوهمنا) ولا نقول بالعكس اي ان الكرماني استقي من رسائل جابر . واي داع لنذهب الى ان الامام الذي يقصده هو عبيد الله المهدي مع انه لم يذكره قط ، ولم نقارن اقوال هذا الامام باقوال جابر ، كذلك لا نجد اي دليل على تفسيرات البيان التي نوه بها جابر بالمهدي .

ليست رسائل جابر هي التي مهدت رسائل اخوان الصفاء بل كتب الكندي ورسائل الجاحظ المختلفة ، واننا لنجد

فكرة التطور عند الاخوان شبيهة بما عند الجاحظ . وهذه هي خلاصة فكرة التطور عند الاولين : يدعي اخوان الصفاء بأن الانسان ذروة تطور الخليقة ويقولون : « اما رتبة الحيوانية التي تلي رتبة الانسانية فليست من جهة واحدة ولكن من عدة وجوه ، لأن رتبة الانسان لما كانت معدناً للفضائل وينبوعاً للمناقب لم يستوعبها نوع واحد من الحيوان وانما استوعبتها عدة انواع ، فمنها ما قارب رتبة الانسانية بصورة جسدية مثل القرد ، ومنها ما قاربها بالاخلاق النفسانية كالفرس ومنها كالطائر الانساني ايضاً ومثل الفيل في ذكائه والببغاء والهزار ونحوهما من الاطيار الكثيرة الاصوات والالحان ومنها النحل اللطيف الصنائع الى ما شاكل ذلك ... »

ويقول الجاحظ في كتاب الحيوان عن الانسان : « سموه العالم الصغير سليل العالم الكبير لما وجدوا فيه من جميع اشكال ما في العالم الكبير ، ووجدنا له الحواس الخمس ووجدوا المحسوسات الخمس ووجدوه يأكل اللحم والحب ويجمع بين ماتقتاته البهيمة والسبع وشبه ظاهر القرد بظاهر الانسان ترى ذلك في طرفه وتغميض عينه وفي ضحكه وفي حكايته وفي

كفه واصابعه ورفعها وخفضها » يذكر اخوان الصفاء ايضاً ان الانسان هو العالم الصغير بما يقابل الكون العالم الكبير .

ذكر لنا « كراوس » القرابة بين رسائل جابر ورسائل اخوان الصفاء ، ولكنه لم يذكر وجوه الاختلاف ان تقسيم الفصول عند جابر هي شكليه اما عند الاخوان فهي حقيقية فلهم مباحث في الفلسفة واخرى في الطبيعيات والرياضيات وغير ذلك ، اما رسائل جابر فليس فيها مواضيع منفردة ، اذ تغلب عليها نزعة مزج المواضيع مع بعضها . يغلب على رسائل الاخوان صبغة الوضوح في الوقت الذي تحمل فيه رسائل جابر طابع اللف والدوران والغموض المقصود وتكاد تدور حول موضوع واحد ، وتشمل الاولى جميع العلوم وهي بذلك أشبه بدائرة معارف .

يذكر « كراوس » ان جابرا يعتبر عند الشيعيين الذين عاشوا في القرن الثامن كحجة أو باب أي انه على اتصال وثيق بالامام بعد ان حاول ان يبرهن انه من رجالات القرن التاسع، ولعل التناقض بلغ ذروته بقوله : « لعل ذلك ينطبق على محرر رسائل جابر الاصلي » ، فكيف ينفي ثم يثبت في آن واحد؟!

لا يوجد أي برهان على ان جابرا من دعاة الاسماعيلية ، فاذا كان على رأيه من معتنقي هذاالمذهب فما هو الدليل على انه من دعاته ؟ اذا وجدنا مشابهة بين مخطوطات جابر والاسماعيلية ، يلزم ان تبين درجة صحة هـذه المخطوطات الاخيرة ، وما هو تاريخها ؟ وما هو نوعها ؟ ومن أين حصل عليها ؟ وهل ياترى هي أصلية أومنتحلة ايضا ؟؟ وكيف اتيح له الاطلاع على هذهالوثائق مع انها من الاسرار ؟ !وهل يكفي ان صديقا أطلعه على مثل هذه المخطوطات (كما بين ذلك فيما نشر عن الرازي) ليتخذ ذلك حجة لنقض الوثائق القديمة؟! وهل من الوجدان المسلكي ان يسمح بالحكم على مجموعة من الرسائل بالانتحال لشهادة صديق عزيز ؟ وهل يعرف العلم الصحيح الصداقة والعداوة ؟ كيف تمحص المخطوطات القديمة هذا التمحيص ويقضى عليها بالانتحال لاعتبارات بعيدة المدى ولا تعمل مثل هذه التمحيصات في المخطوطات الحديثة التي يطلعنا عليها صديق ؟ كيف يصدق صديقا له أطلعه على بعض المخطوطات السرية ويكذب اجيالا من العلماء والمجتهدين والمحققين ؟! اذا كانت تعاليم الاسماعيلية من

الاسرار ، فهل ان هذا الصديق الذي اطلعه عليها يحمل مفاتيح هذه الاسرار ؟ لا يكفي الادعاء ان ما وصل اليه هو من صميم عقائد الاسماعيلية دون ان يقيم لنا الادلة على ذلك . اذا كنت مدعياً فالدليل وان كنت ناقلا فالنص ، ولا دليل ولا نص عندنا . لماذا الادعاء ان ما تواتر عن جعفر الصادق هو منتحل وما تواتر عن الاسماعيلية هو اصلي ؟ ان النصوص المروية عن جعفر الصادق هي كثيرة ، ويوجد توافق بين قسم عظيم منها ، وعلينا ان نقارنها مع بعضهـا لنعطي حكماً ينطبق على الواقع او يقاربه ، اما الهرب من مشكلة جعفر دون تمحيص اقواله ومقارنتها فذلك عمل لا يرضاه الضمير العلمي .

يدعي « كراوس » ان المقابلة بين جعفر الصادق وابي حنيفة هي منتحلة ، لكنه لم يبين لنا ما هي وجوه الانتحال ، هل العصر ينافي ذلك او التعاليم المروية عنها في المناقشة تخالف الواقع ؟ وهل هو خارج حدود المعقول ان يتقابلا ويتناقشا ويسعى كل واحد منهما بحججه وبراهينه لتأييد مذهبه ؟ ان تدقيق هذه المناقشة (كما سوف نبينها عند الكلام عن

سيطرة الروح الجعفرية في رسائل جابر) تلقي ضوءاً جديداً على نوع العلاقة بين جابر والامام الصادق، اذ يثبت لنا بالنصوص التي نشرها الاخصائيون ومن جملتهم «كراوس» نفسه على نوع العلاقة بين الاثنين، ونستدل بالقرائن على ان جابراً استفاد من الامام ناحية معينة فقط. اذا كان الكتاب المنسوب الى جعفر الصادق عن الكيمياء والذي نشره «روسكا» في «هيدلبرغ» منتحلا، فليس معناه ان كل مناسبة بين الاثنين منتحلة. ان هذا الحكم حكم مستعجل وقياس لا يرتكز على عمق وتدقيق.

يقول «كراوس» ان ابن النديم في فهرسته يدعي ان جابراً لم يعش قط، وهذا غير صحيح، والحقيقة التي لا شبهة فيها ان ابن النديم ينقل رأي غيره ويرد عليه وهذا هو تصريحه بالحرف: «وقال جماعة من اهل العلم واكابر الوراقين ان هذا الرجل -يعني جابراً- لا اصل له ولا حقيقة، وبعضهم قال انه ما صنف وان كان له حقيقة الا كتاب الرحمة وان هذه المصنفات صنفها الناس ونحلوه اياها. وانا اقول ان رجلا فاضلا يجلس ويتعب فيصنف كتباً تحتوي على الفي ورقة

يتعب قريحته وفكره باخراجه ويتعب جسمه بنسخه ثم ينحله لغيره اما موجوداً او معدوماً ضرب من الجهل ، وان ذلك لا يستمر على احد ، ولا يدخل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم ، واي فائدة في هذا واي عائدة ؟ والرجل له حقيقة وامره اظهر واشهر وتصنيفاته اعظم واكثر . ولهذا الرجل كتب في مذاهب الشيعة .. وقد قيل ان اصله من خراسان والرازي يقول في كتبه المؤلفة في الصنعة قال استاذنا ابو موسى جابر بن حيان . » ذكر ايضاً انه كان من كبار الشيعة واحد الابواب وكان صاحب جعفر الصادق وكان من اهل الكوفة ، وعند معالجته للاسماعيلية لم يذكر قط اي صلة بينه وبينها .

يتناول السيد محسن الامين العاملي مشكلة العلاقة بين الامام وجابر في كتابه اعيان الشيعة فيذكر بادىء ذي بدء قوله : « لم يذكر احد من اصحابنا الذين الفوا في رجال الشيعة واصحاب الائمة كالطوسي والنجاشي ومن عاصرهم او تقدمهم او تأخر عنهم جابر بن حيان من تلامذة الصادق ولا من اصحابه ولا ذكروه في رجال الشيعة » ثم يستطرد

بعد ذلك ويذكر رأي ابن النديم السابق ويؤيد تشيعه وصحبته لجعفر الصادق باقوال ابن طاووس ورواية ابن بسطام واليافعي وابن خلكان وغيرهم وشواهد من كتاب السموم لجابر نفسه وبعض الرسائل المطبوعة ، وينفي تلمذته على خالد بن يزيد بتاتاً ، اما كونه احد دعاة الاسماعيلية فلا يتناول ذلك مطلقاً .

ان التناقض لظاهر في وضع تاريخ تأليف الرسائل عند « كراوس » ، اولاً يقول انها يلزم ان تكون قبيل عام ٨٦٠م اي في نهاية القرن التاسع ، ثم يقول نظراً لفكرة ظهور الامام في زمن المفاسد والاضطرابات والثورات وسقوط الدين ، التي جاء ذكرها في رسائل جابر انها قبيل عام ٩٢٨ ، ثم يقول قبيل تأليف ابن النديم لكتاب الفهرست وذلك عام ٩٨٧ ، ثم يقول قبيل عام ٩٥٠ ، والحاصل ان التاريخ يتراوح بالتقدير بين ٨٦٠ وبين ٩٨٧ ، فما هذا الضبط الرياضي وما هذا التلاعب بالاعداد ـ وهل يعد اختلاف ١٢٧ سنة ليس باختلاف ذي قيمة ؟

اذا كانت هذه الرسائل التي نحن بصددها هي مقدمة رسائل

اخوان الصفاء فكيف يمكنها ان تكون قد حررت في اواخر القرن العاشر ، وفي هذا القرن نفسه ظهرت رسائل الاخوان.

كيف يمكن الحكم من فكرة ظهور الامام في زمن المفاسد والاضطرابات على ان الرسائل الفت قبيل سقوط حكم العرب ؟ وهل ان الفكرة التشاؤمية دليل على وجودها ؟ وهل يمكننا الحكم على سقوط الغرب لوجود كتاب «اشبنجلر» بهذا الموضوع ؟ او الحكم من الاحاديث التي تصف لنا يوم القيامة على انها قيلت قبيل ذلك اليوم . أليس قيال الانسان حديقة عنده ؟! فمن اي واقعية استمد افلاطون موضوع جمهوريته والفارابي فكرته في المدينة الفاضلة وابن طفيل في حي بن يقظان «وروسو» في «اميل» ؟ كيف يستشهد بابن النديم في مواقع عديدة حتى انه يضع تاريخ الرسائل قبيل ظهور الغزنويين ، وبعد ذلك يدعي ان ابن النديم يقول ان جابراً لم يعش قط ، والحقيقة كما بيناها .

اي داع لتبرير رؤية الامام بغيبوبته ؟ افلا يمكن ان يكون المريد بعيدا عنه ويصبح ذو حظ عظيم اذا أتيح له رؤيته ؟ اذا كانت فكرة الصامت والناطق قد أتت مؤخراً ،

أفليس من المحتمل ان تكون هذه الفكرة قد أدخلت من بعض النقلة في عصور متأخرة ؟ ولكن هذه الفرضية تتنافى طبعاً مع الحكم الذي اصدره « كراوس » جزافاً بوحدة الرسائل بحيث لو أثبتنا ان واحدة منها منتحلة يسري حكمنا على الجميع . ولاصدار هذا الحكم يلزم عمل دراسات مطولة ومقارنات شتى مع اخراج الرسائل جميعا على النمط اللغوي المعهود ودراسة جميع المصادر التي تقدمتها ومقابلتها مع العصور المتأخرة . ان الغالب على الظن ان في الرسائل كثيرا من الحشو المتأخر الذى بلبل الافكار وساعد الذين في قلبهم مرض على الطعن في صحتها جميعا وانكار فضل شخصية دينية لها مكانتها المرموقة في تاريخ الفكر الاسلامي . وانه لمن دواعي الاسف فعلا ان ندع الميدان فسيحا للمغرضين في تراثنا ان ان يعبثوا فيه دون ان نقول نحن كلمتنا في ذلك بل نأخذ اقوالهم على علاتها دون نقدها وفق قواعد العلم الحديث وهكذا وصل الخمول فينا ذروته وتركنا قيادتنا حتى في تراثنا لاشخاص اعتقدانا فيهم الكمال ، وتركناهم يلفظون الكلمة الاخيرة في أقدس مقدساتنا وان كان فيها الطعن والتغرض

ظاهرا ، ، لاعتقـادنا في انفسنا النقص وفي امم الغرب العصمة من الخطأ والتنزه عن الزلل والاغراض المشينة . وقد غاب عن فكرنا ان الغربيين حتى لو كانوا بعيدين عن الاغراض وعن الخطط الحكيمة في هدم معالم تراثنا ومجدنا التليدهم اناس مثلنا يجوز في حقهم الخطأ والصواب ، ولكن الكسل والجمود وعدم البحث الجدي في تراثنا هو الذي جعل لهم حق التدخل فيسرحون ويمرحون فى عقائدنا وفي تاريخنا الفكري ، ونحن واقفين كالصنم لانبدى حراكا ولا نمحص ولا ندقق ولا نبحث ولا نحقق. اما سر اخفاقنا في البرازفكان للسبب الآتى : اذا اردنا المبارزة ضربنا صفحا بقواعد العلم الحديث ، فبانت قوتهم وبان ضعفنا وكنا في ذلك من الخاسرين . ان سلاحهم لماض والسلاح الذى نتذرع فيه ضعيف ، واننا اذا لم نستعمل نفس السلاح الذي يوجهونه ضدنا فلا أمل لنا في ان نفوز في قصب السبق وان نكسب المعركة .

هذا ويلزم ان نفرق بين النزيه من علمـاء الغرب والمتغرض ، فليس كل عالم تناول تراثنا منهم كان كمن وصفنا

اذ هناك ولاشك نفر غير قليل (سواء أخطأ او اصاب) يبغي في تحرياته العلمية وجه الحقيقة المجردة ، وان كلمتنا التي نوجهها ليست لهؤلاء ، باذا حاربنا المغرضين فان النزيهين لاشك يقفون في صفوفنا لتحري الصواب ونشدان الحق .

استقصاء اشارات جعفر في رسائل جابر :

قام العلماء في مناقشة العلاقة بين جعفر وجابر ، وقد ابدوا آراءهم دون ان يكلفوا انفسهم عناء البحث عن النصوص نفسها التي وردت في رسائل جابر عن الامام الصادق ، فعند استقصاء النصوص نعرف وجه العلاقة ، ويمكننا بالمحاكمة المتزنة معرفة امكان الصلة او عدمها . ويجب ان نعرب عن أسفنا بأن الكتب الموجودة بصفة مخطوطات في القاهرة والمكتبة الاحمدية في حلب وغيرها من المكتبات لم تهيأ للنشر والمطالعة . واننا لا يمكننا اعطاء حكم ينطبق على الواقع أو يقاربه دون أن تكون جميع الوثائق في متناول ايدينا وقد نشرت بطريقة علميـــة حسب قواعد علم اللغـــة الحديث « فيلولوجيا » . واننا في هذه الدراسة سوف نقتصر على

الكتاب الذي نشره « هولميارد » عن مصنفات في علم الكيمياء لجابر ، وفي مختار رسائل جابر بن حيان نشرها في القاهرة « كراوس » ومما يؤسف له حقا ان رسائل جابر لم يتابع نشرها رغم ما فيها من العلوم التي تزيد قيمة تراثنا فالامل من معاهدنا العلمية توجيه اهتمامها لمثل هذه القضايا الهامة.

اذا طالعنا هذين الاثرين بامعان نجد ان الصلة بين الاثنين اعني جابرا وجعفرا هي صلة رعاية وتوجيه. ففي كتاب الرحمة من منشورات « هولميارد » نقرأ مايلي : « .. قال لي سيدي ياجابر ، فقلت لبيك ياسيدي ، فقال هذه الكتب التي صنفتها جميعها وذكرت فيها الصنعه وفصلتها فصولا وذكرت فيها من المذاهب وآراء الناس وذكرت الابواب وخصصت كل كتاب .. وبعيد ان يخلص منها شيء الا الواصل ، والواصل غير محتاج الى كتبك ثم وضعت كتبا كثيرة فى المعادن والعقاقير ، فتحير الطلاب وضيعوا الاموال وكل ذلك من قبلك ... والآن ياجابر استغفر الله وارشدهم الى عمل قريب سهل تكفر به ما تقدم لك واوضح .. فقلت ياسيدي أشر علي اي الباب اذكره فقال مارأيت لك بابا تاما مفردا

الا رموزا مدغما في جميع كتبك، مكتوما فيها ، فقلت له قد ذكرت في السبعين واشرت اليه في كتب النظم وفي كتاب الملك من الخمسمائة وفي كتاب صفة الكون وفي كتب كثيرة من المائة ونيف ، فقال صحيح ماذكرته من ذلك في اكثر كتبك وهو في الجمل مذكور ، غير انه مدغم مخلوط بغيره ، لا يفهمه الا الواصل، والواصل مستغن عن ذلك ولكن بحياتي ياجابر ،افردفيه كتابا بالغا بلا رمز واختصر كثرة الكلام بما تضيف اليه كعادتك ، فاذا تم فاعرضه علي فقلت السمع والطاعة »

اننا نستنتج من هذا الحوار المدون ان القضية هي قضية اهتمام لا اكثر . واذا تابعنا العلاقة نجدها لا تقف عند هذا الحد ، بل تتعداه الى امر كشف سر الله الاعظم الا هو الاكسير الذي سبق لنا وبحثناه في الاديب بعنوان « الاكسير على ضوء العلم الحديث » ، وعلى مايظهر ان جعفراً يعتقد بالاكسير ويعتقد بامكان السيطرة على المادة (كما سنرى ذلك في تحليل نصوص مختار رسائل جابر الكراوس) وتوجيهها حسب المشيئة ، ويظهر ان المعنى من الحجر هوالاكسير نفسه :

« فاذا اقمت الا كسير من كون احدهما بهذا الميزان فهو وحق سيدي (ويقصد بذلك جعفر) الميزان الطبيعي في كل الاعمال »، وهذا تفسير لمعنى الحديث النبوي بان العبد لا يزال يتقرب الى الله حتى يكون سمعه وبصره ... الخ يقصد بهذا التقرب الاطلاع على اسرار الكون .

كذلك نجد في كتاب البيان من منشورات «هولميارد» :
« انه لما كان البيان اجل ما يحتاج الى تقديمه في علوم مولانا عليه السلام (اي جعفر) ، وكان طريقه احد الطرق التي يجب ان يدرج المتعلم عليها ويتغذى بها ، وجب ان نذكره في هذا الكتاب ليعرفه الراغب في هذه العلوم الشريفة بحقه وصدقه فيعظم انتفاعه به . »

هذا ما اثبتناه من منشورات «هولميارد» ، اما في مختار رسائل جابر فاننا نرى العلاقة اعمق وامتن وهي متشعبة المرامي ومتعددة الاهداف ونقسمها الى الاقسام الآتية :

١ ـ القسم بالامام .

٢ ـ طلب جعفر من جابر تسهيل الموضوع .

٣ ـ الاقرار بالتعلم من جعفر .

٤ ـ التقاء جابر بجعفر .

٥ ـ سيطرة الروح الجعفرية في رسائل جابر .

اننا نحاول في دراستنا هذه ان نعالج كل ناحية على حدة ، ويجب ان نعترف ان تقسيم هذه النصوص والمواضيع هو تقسيم غير قطعي ، لأن كثيراً من الافكار والتصريحات يتداخل بعضها ببعض .

القسم بالامام :

ان النصوص التي يقسم بها جابر بامامه جعفر هي كثيرة ، ويدل معظمها على عدم تضليل الطالب بل اهدائه سواء السبيل ، نجد ذلك عند الكلام عن طبائع الكواكب : « وهذا وحق سيدي كلام جوهري نقي ما فيه شوب ولا رمز » ، وهذا التصريح يدلنا على ان جابراً يرمز في كلامه ، ولا يذكر بوضوح . ومثل ذلك نجد عند الكلام عن الزئبق الذي يقول فيه : « وحق سيدي تام غير مرموز » ، وفي كتب الحاصل يقول : « اتعلم ماقد كشفت للناس فيه . فان لم تصل اليه فاطلبه فانه يخرج لك جميع غوامض كتبي وجميع علم الميزان

وجميع فوائد الحكمة وتصير به ـ وحق سيدي عليه السلام ـ من اهل الصنعة وتعلم الفاسد من الصالح والسلام . »

من الصعب علينا احصاء جميع النصوص التي يقسم بها جابر بامامه التي تتناول ضرورة الاهتمام بكتبه والتمعن بهما وفهم مراميها . لأن المريد كما ينوه جابر اذا لم يصغ اليها ويتقبلها ليتلفن عمره سدى وتذهب به ضياعاً كذلك الامر عندما يتكلم عن الامور المستعصية مثل التولد الذاتي الذي يقول فيه قسما بامامه انه من تعلمه بصورة جيدة فقد رزق خيراً عظيما ، وفي معرض هذا الحديث يتكلم عن الاكسير ويقسم بامامه قائلا : « خطأ الاكسير ان يكون على طريق الميزان فليعلم ذلك ، فوحق سيدي لقد انكشف لك بهذه الكلمات سر عظيم ان فطنت له » فاذا كان مقصوده بالاكسير العامل بالتماس الذي لم يخضع الى قانون حتى يومنا هذا ، ادركنا قيمة هذا القول قبل قرون . يقسم بالامام في موقف آخر فيقول ان العلم الذي يقوم في تدوينه بعضه مكشوف وبعضه مرموز ، ويشير بصورة ظاهرة قائلا : «وحق سيدي لاوقعت كتبي الى انسان فضيعه الله ، بل يكون له رزق ولو اجتهد

الناس كلهم على حرمانه ما امكنهم » وفي مواطن الصبر وانتظار الفرج يقول : « وحق سيدي احمد الله وان ابطأ عليك امرك ـ فلا تيأس من روح الله ومن فرجه فتكون ممن ظلم نفسه وجور الباري في قضائه عز وجل » وعندما يتكلم عن تفاعل بعض المواد كالكبريت والزئبق والنوشارد والرسختج والاكسير وغير ذلك يقول : « فوحق سيدي ان هذه الكلمات التي ذكرناها في هذا الفصل لو تصدقت بكل ما تملكه عوضاً عنها أو بذلت منها كل طارف وتليد حتى تصل اليك ، لقد اخذت عرضاً لا يفنى وملكا لا يبيد » . وفي النية الصادقة يقول : « فوحق سيدي لئن لم تفعل وتقدم النية الصادقة وتساعد اخاك المعين لك على هذا الشأن بأهلك ونفسك ومالك لم تصل لا انت ولا هو الى شيء مما تقصده » وهكذا نجد الكيمياء « فوحق سيدي انه لغاية العلم ولو شئت لبسطته فيما لا آخر له من الكلام . ولكن هذه الكتب يا اخي معجزات سيدي وليس ـ وحقه العظيم ـ يظفر بما فيها من العلوم الا اخونا » ويقصد بذلك المخلص لعمله . وعندما يتكلم عن الصنعة نفسها يخوض في الاذابات والتكليسات

والتصعيدات والتصديات والتشميعات يقسم ايضاً بسيده جعفر ويقول

« وحق سيدي لقد ضننت بذكر هذه الكتب في كتاب الضمير وهى لاشرف كتبي . »

ان جميع هذه العبارات تدور حول محور واحدوهى تعظيم وتبجيل امامه وفيها من ضرورة عدم اليأس من روح الله والقنوط شيئاً كثيراً ، ويعتقد كما بينا ان هذه الصنعة هي غاية العلم . يظن المطالع السطحي ان القضية هنا هي قضية تبجيل فقط ، لا يمكن بواسطتها اقامة الدليل على وجود صلة ما ، لأن الانسان يبجل ويعظم شخصية تاريخيه تفصله عنها قرون - نظراً لما قرأه عنها أو سمعه . ولكن قبل ان نلفظ هذا الحكم يجب علينا ان ندرس نواحي اخرى . ان الناحية الثانية التي نود دراستها هي طلب الامام من جابر تسهيل الموضوع :

طلب الامام جعفر من جابر تسهيل الموضوع:

ان هذه النصوص في الحقيقة مختلطة مع القسم الاول اي القسم بالامام . واننا رأينا في المواضع التي مر ذكرها

سابقا ان جابرا قسما بامامه يقوم في تسهيل الموضوع ،
ويذكر في بحث التكوين : « وحق سيدى ذكرت ماهيه
كفاية وبلاغ » ، اوفي كتاب الاحجار على رأى « بليناس » :
« وحق سيدى (ص) كشفت واوضحت الطريق » ويذكر
في كتاب الخواص الكبير : « فقد - وحق سيدى (ص) - سمحت
لك في هذا المقال مالم أسمح به في كثير من كتبي في موضع ،
اذ من سبيلي شرح العلم وتبديده وتفريقه في المواضع
الكثيرة والسلام . وغير ضائر بعد اذ قد حددنا الاركان
التي منها يكون العمل ان نضيف كيف وجه العمل فيها ليكون
القول والكتاب تأمين لذلك ، اذ قد نشطنا لكشف الغمة
والعمى عن الناس جميعا ، وعلى الله نتوكل في جميع الامور
ولقد كان سيدي (اي جعفر) يقول لي كثيرا : اعمل
ماشئت و اكشف العلم كيف شئت . فلن يأخذه الا مستأهله
بحق والسلام . »

يعتقد جابر انه في هذا التوضيح و كشف العلوم المستعصية
قد استوجب من الله الرحمة والغفران ، كما يؤكد له امامه
بذلك . هنا أيضا لانجد شيئا جديدا واذا ادعى أحد ان

هذه الصلة هي مختلقة ، فليس عندنا اي دليل على اثباتها او نفيها ، لاننا نقدر على وضع اي شخصية من الشخصيات في هذا الموضع ، طالما ليس هناك اي نص من النصوص يدل على التقاء الشخصيتين الكبيرتين ، ولدي متابعتنا لدراسة هذه المختارات نجد قولا صريحاً بالاقرار بالتعلم

الاقرار بالتعلم من جعفر :

لا تقف الصلة عند الاحترام والتبجيل ، بل هناك نصوص عديدة تشير الى اقرار جابر بالتعلم من امامه : « وحق سيدي ، لولا ان هذه الكتب باسم سيدي ـ صلوات الله عليه ـ لما وصلت الى حرف من ذلك آخر الابـــد لا انت ولا غيرك الا في كل برهة عظيمة من الزمن . فاحمد الله الذي اوضح لك هذه السبيل وابان لك الحق ، انه فاعل ما يشاء ورازق من يشاء بغير حساب ، فتبارك الله احسن الخالقين . » وفي كتاب الحاصل يقول : « ليس في العالم شيء الا وهو فيه جميع الاشياء ، والله لقد وبخني سيدي على عملي فقال : والله يا جابر لولا اني اعلم ان هذا العلم لا يأخذه الا من

يستأهله واعلم علماً يقيناً انه مثلك لامرتك بابطال هـذه الـكتب من العالم . اتعلم ما قد كشفت للناس فيها . فان لم تصل اليه فاطلبه فانه يخرج لك جميع غوامض كتبي وجميع علم الميزان وجميع فوائد الحـكمة . »

اذا طالعنا كذلك بحث الطلسم نجد حواراً يدور بين جابر وجعفر : « نقول ها هنا لم يسمى الطلسم طلسما ، فأن هذا لم نقل فيه لاحد شيئاً غيرك . فانا رويناه عن معدن الحـكمة وصانعه (اعني جعفراً) خبرني به وقال : يا جابر فقلت لبيك يا مولاي ، فقال : اتدري لم يسمى الطلسم طلسما : قلت : لا والله يا مولاي ما ادري . فقال . فـكر فيه فانه من علمك . ففكرت فيه سنة فلم اعلم ما هو ، فقلت : لا والله ما ادري ما هو . فقال : لولا اني غرستك بيدي وانشأتك اولا وآخراً الى وقتي هـذا لقلت انك مظلم ، ويلك اقلبه ، فقلت نعم يا مولاي ، فاذا معناه مسلط من جهة الغلبة والتسليط . فخررت ساجداً فقال : لو كان سجودك لي وجدك لـكنت من الفائزين قـد سجد لي آباؤك الاولون . وسجودك لي يا جابر سجودك لنفسك ، انت والله فوق ذلك .. فخررت

ساجدا ، فقال : يا جابر ما تحتاج الى هذا كله . فقلت صدقت يا مولاي ، فقال : قد علمنا ما اردت وعلمت ما اردت ، فكن على نيلك ، فاشرح هذا في كتابي اخراج ما في القوة الى الفعل . » والمراد من السجود هنا ، السجود للحقيقة العليا .
وعند ذكر الميزان : « وهذا في الميزان عجيب ان لا يدخل احد العلوم عليها لا التدبير ولا غيره ، وهذا الذي نقول انه اول وعظيم النفع في خواص القدم والتوحيد ـ تعالى علوا كبيرا ـ ونقض عظيم على الثنوية . كذا اخبرني سيدي وامرني ان اقول واصنف . » واثناء كلامه عن الزئبق : « واعلم ان الزئبق يثقل اللؤلؤ ويشده ويصلبه، هذا من الامهات وحبات القلوب، رضي الله عن سيدي ، فانه كان اذا مر به مثل هذه الخواص شيء قال : يا جابر هذه حبات القلوب . وما ينبغي لك اذا نظرت في كتبنا هذه الا ان تجمعها وما ينضاف اليها من فنونها والسلام . »

لا يرجع جابر علومه الى الامام الصادق فحسب ، بل يرى انها من علم النبي (ص) ، لأنه لابد من خلق عظيم يتصف به الكيميائي ليتوصل الى هدفه (كما سوف نتكلم عن ذلك

قريباً)، وهنا لا نجد اشارة للتعلم من جعفر فحسب، بل يقول : « وحق سيدي عليه السلام ان لم تقبل لتكونن مثل رعاع العامة السفلة الاضداد لعنهم الله اكثر مما قد لعنهم . » ويقصد بذلك ان هذه الاخلاق الفاضلة هي من شيم الانبياء والمرسلين ويجب التحلي بها للوصول الى الهدف المقصود .

التقاء جابر بجعفر :

يمكن ان يتبادر الى الذهن ان تلقين التعليم هو رمزي فقط بدليل ان الانسان لقادر ان يتعلم من استاذ تفصله عنه سنين عديدة ، ولكن هناك اشارات عديدة تدل على ان جابرا التقي بجعفر ، وقد رأينا عند الكلام عن الطلسم تحاوره مع الامام ، وفي الزئبق يذكر ان سيده كان يقول ، وفي هذا المعنى يقول ايضاً : « وحدثني سيدي عن آبائه واحد بعد واحد قال قال لي آخر : فاما الناشيء في زمان الفسق فان الاصغر يكون اولاده كثيرا جدا لا يحصي عددهم الا الله تعالى . » يذكر ذلك اثناء الكلام عن أخوين له احدهما عراقي والآخر فارسي وطبعا ان جابرا يرمز هنا

ولا يتكلم بوضوح . وهذه كلها تشير الى شيء . انه يوجد نصان احدهما يقول فيه : « ولقد كنت يوما من الايام بعد ظهور امري بهذه العلوم وبخدمة سيدي عند يحيى بن خالد وكانت له جارية نفيسة لم يكن لاحد مثلها جمالا وكمالا وادبا وعقلا وصنائع توصف بها وكانت قد شربت دواء مسهلا لعلة كانت بها فعنف ثم زاد عليها الى ان قامت ما لم يكن من سبيل الخلاص منه ولا شفاء له . » ثم يذكر جابر انه عالجها بترياقه فشفيت على الفور .

هنا يذكر جابر صراحة انه كان في خدمة سيده جعفر . ويحكي مثل هذه الحكاية عن انسان انتفخ جانبه الايمن كله واخضر حتى صار كالسلق لا بالمثال ولكن بالحقيقة، فسأل عن حاله فقيل له افعى نهشته ، فعالجه كما عالج الجارية فشفي . وهنا يذكر صراحة انه صادف ذلك عندما كان خارجا من منزله قاصدا دار سيده جعفر .

سيطرة الروح الجعفرية فى رسائل جابر

نجد سيطرة الروح الجعفرية في رسائل جابر ظاهرة بفكرة الاعتبار في الطبيعة التي اتخذها الامام الصادق

هدفه الاسمى في الحياة ، وهى في الحقيقة منهج اسلامي نجده واضحا فى القرآن وفي السنة النبوية . من أجل ذلك لاعجب أن يري جابر ان طريقته مستمدة من الرسول الاعظم . وهو يجد ان ليس له في هذه الكتب الا تأليفها ويمكننا تقسيم سيطرة الروح الجعفرية في رسائل جابر الى الاقسام الآتية .

أ : الاخلاق الفاضلة

ب : التوجيه نحو الباطن

ج : مبدأ الميزان المستمد من فكرة العدل الالهى

د : نقد القياس (القياس الحنفي والاعتبار الجعفري)

الاخلاق الفاضلة

يحدثنا جابر في رسائله عن اخلاق فاضلة يلزم ان يتصف بها المريد لعلم الكيمياء وهذه تتلخص بالصبر والثبات والتروي بالامور والحكمة والتؤدة وعدم التسرع في الحكم والابتعاد عن رشوة الضمير. وهذه الاخلاق الفاضلة هى في الحقيقة الدعامة الحقيقية في تقدم العلوم . واذا طالعنا رسائل جابر بامعان نجد بجانب النظريات التي يبديها قواعد اخلاقية هامة يثيرها

نكاد نقرأها في كل جملة من جمل رسائله . وهو يعزي هذه الشيم السامية (كما بينا) الى الانبياء والمرسلين ، وقد تلقنها مباشرة عن معلمه جعفر الذي توارثها عنهم . وان العلة الحقيقية في تأخرنا عن العلوم النافعة في العصر الحاضر هي اننا اضعنا تلك المطالب السامية التي انتقلت الى بعض اساطين العلم في الغرب فكانت السبب لظهور هذه الكشوف الهائلة التى نراها امامنا ولا نريد ان نتوغل في الموضوع ونبحث عن هذه الفضائل كيف انتقلت بمظاهرها لا في اهدافها الباطنية النفسية الى عالم الغرب ، والا لقلل من اختراعه للآلات المخربة الجهنمية ولأرتدع عن وطيء أخيه الانسان بهذه القساوة الوحشية . ولعل السبب الجوهري لعدم ابداعنا في العلوم العصرية وابتعادنا عن الكشف والاختراع مع وجود عدد لايستهان به ممن اختص في مثل هذه العلوم النافعة منا ، هو فقدنا تلك الخصائص النفسية التى كانت لسلفنا الصالح واهمالنا التعاون الذي هو في الحقيقة طاسم الرقي والتقدم والعمران . من هذه الناحية يكون لتراثنا فائدة كبرى ، اذ لا يكون حافزا لنا على اللحاق بركب الحضارة العالمي الذي ابتعدنا عنه

قرونا فحسب ، بل يثير فينا همة جديدة لنصحح ما ارتكبه الغرب من اخطاء فادحة لاهماله العنصر الانساني والروحي في الرقى .

اذا اردنا ان نحصى الجانب الاخلاقى من رسائل جابر واتصالها بامامه جعفر لوجب علينا ان نفرد لذلك بحثا خاصا مستفيضا ، ولكننا نكتفى باشارة لطيفة الى ذلك ، يقول جابر في رسائله : «ومن الخواص ان الوقت في وصول هذه الكتب اليك از قرب فقد قرب الوقت الذي حدثناك به في الكتب التى فيها الفصول النبوية • فاعلم ذلك (ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) وانظر يا أخى واياك والقنوط فيذهب بعمرك ومالك ، فوالله مالي فى هذه الكتب الا تأليفها والباقي علم النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد سمعت ماجاء به النبى (ص) فى القنوط ، واحذرك ان تصير الى هذه الحال فتندم حين لا ينفعك الندم ، والله اعلم بأمرك . وانما علينا الاجتهاد فى الكلام وعليك القبول منا . فان قبلت لم تندم »

اذا لم يصرح لنا جابر باسم الامام فى مثل هذا الموضع فانه

يصرح به في مواضع كثيرة . وان هذا الخلق السامي هو في الحقيقة الذى مكن الامام ان يلتف اليه نفر من علية القوم يغترفون من ينبوع فضله ، وهو الذى جعله محبباً الى القلوب واعطاه القدرة على اقناع الملحدين والدهريين « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » جاء في كتاب الاهليلجة (مطبوع في كتاب بحار الانوار للمجلسي ، طبع حجر . طهران ١٣٠١ هـ) ذكر حواراً جرى بينه وبين طبيب هندى دهري الى ازهداه الله على يده . ويذكر العلامة الشيخ محمد الخالصي في موضوع له بعنوان : « لماذا خص الامام جعفر بن محمد بعنوان المذهب الجعفرى دون غيره » نقلا عن الحافظ ابي نعيم في ترجمة الامام الصادق في الجزء الثامن من كتاب حلية الاولياء مانصه : « ولما كان الامام الصادق بحرا طاميا لايدرك عبابه تتفجر منه ينابيع العلوم والحكمة كان يأوي اليه أيضا من لايدين بدين الاسلام فيأخذون العلم عنه ، فمنهم من يهتدي ومنهم من يبقى على ضلاله مع استفادته انواع الحكم والعلوم .... » وكثيرا ما كانت المناقشة لاتنتهي بما يريده الامام لبقاء الخصم على عناده

ضده وهو مع ذلك لايضيع اتزانه ولا يقنط من رحمة الله .

يشير كذلك نفس المؤلف الســابق الى موضوع قيم في مناقشة احد تلامذة الصادق مع بعض الدهريين فيها شهادة قيمة على الخلق السامي الذي اتصف به الامام ، وهذا الموضوع استقاه الخالصي من كتاب التوحيـــد للمفضل المطبوع في بغداد ، ويذكر « كراوس » في مقـاله باب برزوية فى « كليلة ودمنة » الذي ادرجه البدوي فى كتاب الالحاد في الاسلام، ان هذا الـكتاب طبع في بغـادى طبع حجر سنة ١٣٢٩هـ .

اما النص نفسه فهو كما يلي : « روى محمد بن سنان قال حدثني المفضل بن عمرو قال كنت ذات يوم بعـد العصر جالساً في الروضة بين القبر والمنبر وانا مفكر فيما خص الله تعالى به سيدنا محمداً صلى الله عليه وعلى آله من الشرف والفضائل وما منحه واعطاه وشرفه وحباه مما لا يعرفه الجمهور من الامة ، ومما جهلوه من فضله وعظيم منزلته وخطير مرتبته فانني كذلك اذ اقبل ابن ابي العوجاء فجلس بحيث اسمع كلامه ، فلما استقر به المجلس واذا برجل من اصحابه قد جاء فجلس اليه فتكلـم ابن ابى العوجاء ، فقال لقد بلغ صاحب هذا القبر العز بكماله

وحاز الشرف بجميع خصاله ونال الحظوة في كل احـواله «
فقال له صاحبه انه كان فيلسوفاً ادعي المرتبة العظمى والمنزلة
الـكبرى ، واتى على ذلك بمعجزات بهرت العقول وضلت فيها
الاحلام ، وغاصت الباب على طلب علمهـــا في بحار الفكر
فرجعت خاسئات وهي حسيرة ، فلما استجاب لدعوته العقلاء
والفصحاء والخطباء دخل الناس في دينه افواجاً ، فقرن اسمه
باسم ناموسه فصار يهتف به على رؤوس الصوامع في جميع
البلدان والمواضع التي انتهت اليها دعوته وغلبتها كلمته وظهرت
فيها حجته براً وبحراً وسهلاً وجبلاً في كل يوم وليلة خمس
مرات مردداً في الأذان والاقامة ليتجدد في كل ساعة ذكره
لئلا يخمل امره ، فقال ابن ابي العلاجاء دع ذكر محمد فقد
تحير فيه عقلي وضل فيه امرفكري ، وحدثنا في ذكر الاصل
الذي نمشي عليه ، ثم ذكر ابتداء الاشياء ، وزعم ان ذلك
باهمال لاصنعة فيه ولا صانع ولا مدبر ، بل الاشياء تتكون
من ذاتها بلا مدبر وعلى هـذا كانت لم تزل ولا تزال قال
المفضل فلم املك نفسي غضباً وحنقاً ، فقلت ياعدو الله الحدت
في دين الله وانكرت الباري جـــل قدسه الذي خلقك في

احسن تقويم وصورك في أتم صورة ونقلك في احوالك حتى
بلغت الى حيث انتهيت ، فلو فكرت في نفسك ، وصدقك
لطيف حسك لوجدت دلائل الربوبية وآثار الصنعة فيك قائمة
وشواهده جل وتقدس في خلقك واضحة وبراهينه لك لائحة،
فقال : ياهذا ان كنت من اهل الكلام كلمناك ، فان ثبتت لك
حجة تبعناك ، وان لم تكن منهم فلا لك كلام ، وان كنت
من اصحاب جعفر بن محمد فما هكذا يخاطبنا ، ولا بمثل دليلك
يجادل فينا ، ولقد سمع من كلامنا اكثر مما سمعت فما افحش
في خطابنا ، ولا تعدى في جوابنا ، وانه للحليم الرزين ،
العاقل الرصين، لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نزق ، يسمع كلامنا
ويصغي الينا ويتعرف حجتنا ، حتى اذا استفرغنا ما عندنا
وظننا انا قطعناه ادحض حجتنا في كلام يسير وخطاب قصير،
يلزمنا به الحجة ، ويقطع العذر ولا نستطيع لجوابه رداً ،
فان كنت من اصحابه فخاطبنا بمثل خطابه ، قال المفضل :
فخرجت من المسجد محزونا مفكراً فيما بلي به الاسلام واهله
من كفر هذه العصابة وتعطيلها ، فدخلت على مولاي عليه
السلام منكسراً ، فقال مالك ، فاخبرته بما سمعت من الدهريين

وبما رددت عليها فقال : يامفضل لألقين عليك من حكمة الباري جل وعلا وتقدس اسمه في خلق العالم والسباع والبهائم والطير والهوام وكل ذي روح من الانعام والنبات ومن الشجر المثمر وغير المثمر والحبوب والبقول المأكول ما يعتبره المعتبرون ويسكن اليه المؤمنون ويتحير فيه الملحدون ، فبكر علي غداً . »

هذه الحكاية وامثالها تدل على الخلق العظيم الذي اتصف به الامام الصادق بشهادة خصومه ورغبته المجادلة بالحسنى ، لأن نشدان الحقيقة هدفه الاسمى . ان مثل هذه الاخلاق في الحقيقة هى التي تفتق كنوز الحكمة وهي اساس الالهام في التحري العلمي ، وفيها ايضا اشارة لطيفة للاعتبار في آيات الكون والانتقال من الظاهر الى الباطن من المصنوع الى الصانع الحكيم . حتى ان الصادق لم يقل لمريده اقرأ كتاب الفقه الفلاني أو كتاب تفسير أو حديث أو غير ذلك بل طلب منه التوغل في العلوم الكونية ، لانها الاساس في اقناع الملحدين ، لكنه لم يطلب منه تعلم العلوم الطبيعية والوقوف عندها في شكلها الظاهري فقط ، بل الانتقال الى الباطن

ليكون من المعتبرين « واعتبروا يا اولي الابصار » .

في مواضع عديدة نرى جابراً يشير في رسائله دوما الى وجوب التؤدة وفهم الامور فهما جيداً ، فهو يوصي بلزوم الرفق وترك العجلة وفتح المجال للحس لمشاهدة الكون والاعتبار بالآيات البينات ، مع التحلي بالاخلاق الفاضلة الى الهدف المنشود . وفي الحقيقة ان هذه الاخلاق السامية من الصبر واقتفاء اثر الطبيعة (كما ينوه عنها جابر في رسائله) وعدم القنوط واليأس ، هي من الامور الهامة التي ساعدت على رقي العلوم وبروز الكشوف الهائلة امام اعيننا ، وهي كما يراها جابر بن حيان من صفات الانبياء والمرسلين وقد تلقاها جابر عن امامه الصادق . واكرر ثانية فاقول ، اني لاعتقد اعتقاداً جازماً ان من اهم عوامل عدم لحاقنا بركب الحضارة العالمي ابتعادنا عن تلك الميزات السامية الضرورية للمبدع . هكذا انعدم الاختراع والاكتشاف في ربوعنا ، لاننا وان اخذنا علوم الغرب الحاضرة ، لم نقتبس بعد تلك الروح الباحثة المنقبة التي كانت من اهم ميزات سلفنا الصالح ، يضاف الى ذلك اخذ الامور بصورة جدية دون رشوة ضمير مع الثبات والصبر

ومحاولة فهم الامور بصورة واضحة جلية .

الترجيه نحو الباطن :

نشاهد فى رسائل جابر اتجاها واضحا نحو الباطن ، وهو مقتبس ايضا من الامام جعفر الصادق ، فجابر يحدد العلمين علم الظاهر وعلم الباطن ، ويقول فى الاول انه العلم بالسنن العامة على الامر الكلى اللائق بالطبيعة والعقول والنفوس الطبيعية ، وحد علم الباطن انه العلم بعلل السنن واغراضها الخاصة اللائقة بالعقول الالهية . ومن دراسة السنن الطبيعية يريد جابر ان يتوغل الى داخلها ليتوصل الى تعمير الباطن ، والا فلا يفيد عمار الظاهر والباطن خراب . وبهذا يفتتح كتابه اخراج مافى القوة الى الفعل : « الحمد لله الذى ليس كمثله شيء وهو على كل شيء قدير . الاول بلا مثال والآخر بلا زوال ، وتعالى وتقدست اسماؤه وهو بكل شيء محيط ، اللطيف الغامض فى بطون الاجزاء ظاهرها وباطنها وما فى اوساطها . العلي الى ما لا نهاية له ، والاسفل الى ما لا نهاية القدير على ادراك جميع الاشياء لطيفها وكثيفها ، وتقدست

اسماؤه وتعالى علوا كبيرا . » وفى موضع آخر يقول فوحق سيدى لئن لم تفعل وتقدم النية الصادقة وتساعد أخاك المعين لك على هذا الشأن باهلك ونفسك ومالك لم تصل لا أنت ولا هو الى شيء مما تقصده فاتق الله جل جلاله . »
وهكذا يشير اننا قبل ان نكشف الحقيقة فى العالم الخارجى يلزم ان تكون انفسنا وعاء الحكمة الالهية ، ولكى تكون كذلك فيلزم ان تطهر من الادران ، فنظافة الظاهر لاتفيد اذا كان الباطن دنسا ، فدوما نجده يقول « ثم تستخير الله الف مرة وتقول فى استخارتك : اللهم اني استخيرك فى قصدي فوفقني وازغ الشيطان عني انك تقدر عليه ولا يقدر عليك ، فاذا قلت ذلك الف مرة عمدت الى موضع ظاهر نظيف .. » فغاية الادعية التى يدعيها جابر اذن الحصول على نفس صادقة قوية تتحمل فهم اسرار الكون .
« اللهم ياخالق الكل انت خلقت الشيطان ولعنته بما استحقه وامرتنا ان نعلنه ، فاصرفه عن قلب وليك انت ، واعني على ما اقصد له ... » وهو يذكر صراحة المصدر الجعفري فى ذلك : « قال سيدي لي في ذلك : ان الله عز وجل اكرم من

ان يتوسل اليه انسان بنبيه واهل بيته فيرده خائباً .» حتى ان جابراً يقول صراحة ان جميع الادعية تعلمها من معلمه جعفر :

« اني كنت الفت سيدي -صلوات الله عليه- كثيراً وكنت لهجا بالادعية وبخاصة ما كان يدعو به الفلاسفة ، وكنت اعرضه عليه ، وكان منها ما استحسنه ومنها مايقول : الناس كلهم يدعون بهذا وليس فيه خاصية . »

لا يقف التوجيه نحو الباطن من جهة تطهير النفس ، بل يتعدى ذلك عند جابر حتى عند المعادن وخواصها ، فنجده يقول في كتاب السبعين « وهذه الطبائع في كل موجود ظاهرة تامة وباطنة تامة ولا يخلو كل موجود ان يكون فيه طبعان فاعل ومنفعل ظاهران وطبعان ، فاعل ومنفعل باطنان . ومعنى تامة وغير تامة ان الفضة عندهم ظاهرها ناقص وباطنها تام ، وان الذهب بخلاف ذلك ، ولذلك سهل عليهم وقرب رد الاجسام الى اصولها في اقرب مدة ... »

في الآثار المتواترة عن الامام جعفر الصادق توجيهات عديدة نحو الباطن ، وقد ذكر العلامة الخالصي نقلا عن الحافظ ابو نعيم في ترجمة جعفر بن محمد ان سفيان الثوري لما قال له : « لا اقوم حتى تحدثني قال له : انا احدثك وما

كثرة الحديث لك بخير ياسفيان ، اذا انعم الله عليك بنعمة فاحببت بقاءها ودوامها فاكثر الحمد والشكر عليها ... وقال سفيان دخلت على جعفر بن محمد وعليه جبة خز دكناء وكساء خز ارجاني ، فجعلت النظر اليه معجباً ، فقال لي ياثوري مالك تنظر الينا ، لعلك تعجب مما رأيت ، قال قلت يا ابن رسول الله ، ليس هذا من لباسك ولباس آبائك ، فقال ياثوري كان ذلك زماناً مقفراً مقتراً ، وكانوا يعملون على قدر اقفاره واقتاره، وهذا زمان قد اقبل ، كل شيء فيه عز ، ثم حسر عن ردن جبته واذا تحتهـا جبة صوف بيضاء يقصر الذيل عن الذيل والردن عن الردن ، فقال ياثوري لبسنا هذا لله وهذا لكم ، فما كان لله خفيناه وما كان لكم ابديناه» . لا ندري الى اي حد من الحدود يرمز الحافظ ابو نعيم بقوله ولاي حد يوضح ، ولكن هذا التصريح يدل دلالة بينة على مبلغ اعتماد الامام على الطريقتين : الظاهر والباطن وتعويله على الباطن .

ان الاعتبارات بآيات الكون والولوج في النفس الانسانية هي صفة امتاز بها الامام ، ويدلنا على ذلك هذه القصة التي يقصها لنا ابن بابوية في كتاب التوحيد الذي ذكره « كرلو

الفونسو نلينو » ونقلها لنا عبد الرحمن البدوي في كتابه عن الالحـاد في الاسلام : « يذكر ابن بابويه القمي الشيعي (المتوفي سنة ٣٨١ هـ) في كتـاب التوحيد (طبع بمباي المتقدم الذكر) في باب القدرة رواية اسنادها : محمد بن علي ماجيلوية عن عمه محمد بن ابي القاسم عن احمد بن محمد بن خالد عن محمد بن خالد عن محمد بن علي الكـوفي عن عبدالرحمن بن محمد بن ابي هاشم عن احمد بن محسن الميثمي عن ابي منصور المتطبب ، عن راو مجهول قال : « كان ابن ابي العوجاء وابن المقفع يلاحظـان الجمع الذي كان يقوم بالطواف حول الـكعبة : فقال ابن المقفع الى اصحابه لا واحد من هؤلاء يستحق اسم الانسانية الا هذا الشيخ الجـالس (واشار الى جعفر بن محمد) ، اما الباقي فرعاع وبهائم ، فقام ابن ابي العوجاء الى الشيخ وتحدث معه ثم رجع الى صاحبيه وقال : ماهذا ببشر ، وان كان في الدنيا روحاني يتجسد اذا شاء ظاهراً ، ويتروح اذا شاء باطنا ، فهو هذا ، ويظهر انه حينما اقترب من الشيخ واصبحـا منفردين قال الشيخ له اولا : لو كان الامر كما يقول هؤلاء (واشار الى الجميع القـائم

بالطواف) ـ وهو حقاً كما يقولون ـ وهو ليس كما تقول ـ فانتم واياهم سواء ، حينئذ سأله ابن ابي العوجاء : رحمك الله ايها الشيخ . اي شيء نقوله نحن واي شيء يقولونه هم . مانؤمن به وما به يؤمنون واحد ، فاجاب جعفر : أنى لما تقول ان يكون كما يقولون ... هم يقولون بالمعاد والوعد والوعيد وان للسماء الها وبها عمراناً ، بينما تزعمون ان السماء خراب وليس بها احد . حينئذ اجاب ابن ابي العوجاء : لو كان الامر كما تقول فما منع الله من الظهور لجميع خلقه ودعوتهم الى عبادته حتى لا يصبح اثنان منهم على خلاف . لماذا اختفى عنهم ومع ذلك ارسل اليهم رسلا . لو كان قد ظهر بذاته لهم لكان اسهل الى الاعتقاد به . فاجاب جعفر : كيف اختفى عنك من اظهر قدرته في نفسك انت وفي ءائك ؟ .. وكان جواباً بليغاً حتى قال ابن ابي العوجاء لصاحبيه : وظل يحصي لي قدرة الله التي في نفسي والتي لم استطع رفضها حتى ظننت ان الله قد نزل بينه وبيني . »

لا عجب اذا نحا الامام الصادق هذا المنحى في الاعتبار طالما كان يستمد قوة الهامه من الينبوع الاسلامي الفياض القرآن

الـكريم وسنة نبيه العظيم . ولا عجب ايضاً ان يحدث في العالم العربي والاسلامي هذا الانقلاب الماثل في سبر غور الطبيعة ؛ سواء كان ذلك ابتكاراً من تلقاء انفسهم او اقتباساً من غيرهم ، طالما الشرع الذي سار عليه السلف الصالح حث على الاعتبار في آيات الـكون والنظر بعين البصر والبصيرة في في هذا العالم الصغير اعني الانسان والعالم الـكبير عالم الافلاك العلوية ، فلمعرفة الصانع الحـكيم يلزم ان نعرف آثار صنعه وآثار الصنع هو هذا الـكون وما يحتويه من الغاز وحكم التي هي تذكرة لاولي الالباب . ان هذا الجد في تحري العلوم والتنقيب عن الطبيعة الذي نشاهده بعد البعثة المحمدية هو ولا شك ثمرة من ثمرات فهم القرآن والشرع كما ينبغي وان هذا الاهمال للعلوم الايجابية في الوقت الحاضر ما هو الا نتيجة طبيعية من نتائج فهمنا السقيم لمعنى تلك الآيات البليغة الخالدة التي يجب علينا ان نتتبعها في عالم الطبيعة لاقتفاء اسرارها وحل رموزها وذلك عن طريق تطهير النفس اولا ، والاعتبار بآيات الـكون ثانياً ، لا باعادة لفظ الآيات كالببغاء . ان سوء الفهم هو الذي اخرنـا عن مجاراة امم

الغرب في صناعاتهم واكتشافاتهم الحديثة . يجب علينا ان لا نفهم باننا يلزم ان نتكالب على جمع حطام الدنيا واطئين بارجلنا كل قيمة معنوية ، بل يلزم ان يكون ذلك مثلاً لنا للولوج في اللب وادراك الروح ، لنتعلم من اسرار الطبيعة ما يرفعنا ويهذب نفوسنا . « ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون » . ان هذا التماس الحقيقي بين النفس وعالم الطبيعة لا يكون الا اذا نهجنا منهج القرآن على سنن الامام الصادق وغيره من فطاحل المجتهدين وادركنا قيمة امثال جديدة لمكتشفات جديدة .

مبدأ الميزان المستمد من فكرة العدل الالهي :

سبق لنا ان تكلمنا في فرص عديدة عن فكرة الميزان عند جابر اي علم القوانين الطبيعية الكمية التي يجري عليها الكون والفساد في الطبيعة ، ويقصد جابر بالميزان (كما بين عبدالرحمن بدوي في مقاله عن جابر في كتاب الالحاد في الاسلام تلخيصاً لفكرة كراوس) القوانين الكمية التعددية التي تحكم كل شيء في الوجود ، وبالتالي ارجاع كل الظواهر الطبيعية وكل ما في الوجود الى قوانين الكم والعدد ،

وهذه الفكرة (كما نوه البدوي) : « هي اكبر محاولة قامت في العصور الوسطى من اجل ايجاد علوم طبيعية تقوم كلها على فكرة الكم والمقدار ، وهي المثل الاعلى الذي سعى العلماء الطبيعيون المحدثون جهدهم الى تحقيقه . ومن هنا جاءت الطرافة والعمق في نظرة جابر هاتيك ذلك لاننا نجد الشغل الشاغل والهم الاكبر للعلم الحديث بكل انواعه وفروعه يتجه الى احلال النسب الكمية محل الخواص الكيفيه في كل تفسير لاي مظهر من مظاهر الوجود . ويكفي ان يكون جابر قد شعر شعوراً واضحاً قوياً بهذا الاتجاه لكي يتبوأ مركز الصدارة في تاريخ العلم كله قديمه وحديثه . » ويذكر البدوي ايضاً انه ليس من المهم ان لا يكون قد استطاع الوصول الى نتائج ذات قيمة في هذا الباب مرجئاً تأثيره من الناحية الصوفية السحرية من نظرية الاعداد عند الفيثاغوريين ولم ينته الى نتائج علمية صحيحة . من الطبيعي ان جابراً لم ينته الى مثل هذه النتائج قياسا الى العصر الحاضر ، ولكنه اتى بامثلة واقعية كما رأينا ذلك عند ما بسطنا فكرة « كراوس » ونقدناها جهد المستطاع . اذا كان هناك تشابه بين كتاب سر

الخلقية المنسوب الى « بليناس الطواني »ومبدأ جابر في الميزان وبين كتاب الكنوز المنسوب لايوب الرهاوي ، فلابد من ان يكون جابر قد تأثر بفكرة الكم التى وردت في القرآن « وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم » « والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل شيء موزون » وانتقلت ايضا الى جعفر الصادق وكونت فكرة العدل الالهي التى نقرأ عنهـا فيما تواتر عن الامام ، ففي الارشاد نقلا عن كتاب اعيـان الشيعة المتقدم الذكر مما حفظ من موجز القول في العدل قوله لزرارة بن اعين : « يا زرارة اعطيك جملة في القضاء والقدر قال له زرارة نعم جعلت فداك قال له اذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق سألهم عما عهد اليهم ولم يسألهم عما قضى عليهم . » ومن الغريب ان يقرن العدل مع التوحيد اسوة بالمعتزلة ، ففي الارشـاد نقلا عن الكتاب السـابق ممـا حفظ عن الامام في التوحيـد ونفي التشبيه قوله لهشام بن الحكم ان الله تعالى لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء . وكلما وقع في الوهم

فهو بخلافه ، فليس اذن جابر قد اخذ فكرة العدل والتوحيد عن المعتزلة ، بل على ما يظهر ان المعتزلة اخذتها عن الامام الصادق ، لأن الامام كان من معاصري الحسن البصري ، وقد كان بين تلامذة الامام الصادق وعمرو بن عبيد نفسه مؤسس حركة الاعزال صلة قوية ، كما يروي لنا ذلك الكليني وابن بابويه نقلا عن كتاب عقيدة الشيعة « لداويت . . روندلسن ».

نقد القياس :

من اهم نقاط التشابه التي نجدها عند كل من جابر وجعفر الصادق نقدهما القياس ، هكذا نجد في الجزء الثاني من حلية الاولياء عند ترجمة الامام الصادق نقلا عن الخالصي وعن كتاب اعيان الشيعة السالف الذكر : « قال عبدالله بن شبرمة : دخلت انا وابو حنيفة على جعفر بن محمد فقال لابن ابي ليلى من هذا الذي معك ، قال هذا رجل له بصر ونفاذ في امر الدين . قال لعله يقيس امر الدين ، برأيه ، قال نعم ، قال فقال جعفر بن محمد لابي حنيفة ما اسمك ، قال نعمان ، قال يانعمان ، هل قست رأسك بعد . قال : كيف

اقيس رأسي. قال ماراك تحسن شيئاً ، قال هل علمت ماالملوحة في العينين والمرارة في الاذنين والحرارة في المنخرين والعذوبة في الشفتين. قال لا. قال ماراك تحسن شيئاً ٠٠ فقال. (جعفر) اخبرني ابي عن جدي ان رسول الله قال ان الله تعالى بمنه وفضله جعل لابن آدم الملوحة في العينين لانهما شحمتان ولولا ذلك لذابتا وان الله تعالى بمنه فضله لابن آدم جعل المرارة في الاذنين حجاباً من الدواب فان دخلت الرأس دابة والتمست الى الدماغ فاذا ذاقت المرارة التمست الخروج ، وان الله بمنه وكرمه ورحمته لابن آدم جعل العذوبة في الشفتين يجد بها استطعام كل شيء ويسمع الناس حلاوة منطقه ٠٠٠ حدثني ابي عن جدي ان رسول الله (ص) قال اول من قاس امر الدين برأيه ابليس : قال الله تعالى :اسجد لآدم فقال انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، فمن قاس الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بابليس لانه اتبعه بالقياس . »

لا نريد ان نتعصب لمذهب من المذاهب فلابي حنيفة الذي يعد تلميذ الصادق أهمية في التشريع الاسلامي ولجعفر أهميته في التعمق بأمر الدين وعدم البحث في ذات الله ، وان كان

هناك من اختلاف فظاهرى فقط ، فالنعمان هو الذي أطلق الفكر من قيوده واستعمل قواعد المنطق في الشرع وفي استنبطاط الاحكام مما حدى ببعض المستشرقين امثال « الفريد فون كريمر » ان يجعله يتبوأ مكانا سامياً ممثلا أقصى ذروة في التطور الجدير بالكرامة البشرية التى يمكن الوصول اليها في الاسلام . أما جعفر الصادق فيذهب أبعد من ذلك اذ يترك المجال دوما لاستنباط حقائق جديدة استنادا على الواقع واعتبارا في آيات الكون وفى نظرته الواقعية سابق «لاوغست كونت» في ذلك ، فقداوردمصطفىعبد الرزاقفي كتابه تمهيد لتاريخ الفلسفة في الاسلام « واخرج عن جعفر بن محمد قال : اذا بلغ الكلام الى اللهفامسكوا . واخرج عنه قال : تكلموا فيما دون العرش ، فان قوما تكلوا في الله فتاهوا .)

ان هذه الفواصل التى تفصل بين ائمتنا الاكارم وجهابذة المجتهدين من أمتنا ماهي فيالحقيقة الا فواصل عرضية تزول امام النفس الانسانية العميقة ، هما مختلفان ظاهرا ومتعاونان باطنا كما يتعاون القطبان المثبت والمنفى في احداث الدورة

الـكهربائية . بهذه الروح الموحدة يجب ان ننظر الى تراثنا ، عندئذ تزول الفوارق بيننا ونصبح بنعمة الله اخوانا وعلى هذا فاذا اعربنا عن اعجابنا بابى حنيفه لتشغيله الفكر الحر في استنباط القواعد الشرعية ، فان اعجابنا ليزداد اذا تعمقنا بفكرة نقد القياس عند جعفر الصادق ، لان في هذا النقد نجد روحا علمية جديدة لاتطمئن الى العقل المجرد في استنتاجاته ، ولا تبقى راسفة تحت نير الفرضيات وقياساتها التي كانت عائقة في تقدم العلوم الطبيعية . ان نقد القياس هذا هو الذي يعطينا الاستعداد الدائم فى تصحيح الافكار الخاطئه والنظريات المغلوطة والاوهام الزائفة ، طالما كان رائدنا تتبع الواقع بصورة واضحة جلية . وتذكرنا فكرة نقد القياس والالتفات الى الواقع باساطين العلماء العصريين الذين وضعوا أسس مناهج العلوم العصرية وقبل ان نقول كلمتنا عما احدثه هذا النقد من اثر فعال في تطور الفكر البشري نرى لزاما علينا ان نأتى بنقد جابر كما ورد في رسائله.

يقسم جابر القياس او الاستدلال والاستنباط الى ثلاثة اقسام : بالمجانسة ، ومجرى العاده وبالآثار ، ويقول : « ان

مثل دلالة المجانسة الانموذج ، كالرجل يرى صاحبه بعضا من الشيء ليدل به على ان الكل من ذلك الشيء مشابه لهذا البعض . ودلالة هذا الباب من هذا الوجه لا دلالة ثابتة صحيحة غير ان جماعة من اهل النظر قد استدلوا من هذا الباب على ما لا دلالة فيه عليه باضطرار ، اعني انهم اثبتوا من أجل هذا الشيء الذي هو الانموذج مثلا ، وهو من جنسه شيئاً آخر هو اكثر منه . وهذا دلالة غير اضطرارية ولا ثابته في كل حال . وذلك ان هذا الشيء الذي هو الانموذج مثلا لا يوجب وجود شيء آخر من جنسه حكمه في الطبيعة والجوهر حكمه وقد استدلت المنانية بهذا الاستدلال فقالت : اذا كان في العالم نور وظلمة وخير وشر وحسن وقبيح ، يجب ان يكون خارج هذا العالم ايضا نور وظلمة وسائر ما ذكروا تكون كليات لهذه . وليس هذا الاستدلال بواجب دون ان يثبتوا ان ما في العالم من هذه اجزاء وابعاض . واما قبل ان يثبتوا ذلك فليس يجب عنه ما أوجبوه اضطرارا . وذلك إنه يمكن ان لا يكون ما في العالم من هذه ابعاضاً بل هي كليات انفسها فلذلك لا تصح هذه الدلالة ... »

تذكرنا فكرة نقد تعلق جرى العادة عند جابر بنقد الغزالى للعلة والمعلول من كتابه المنقذ من الضلال ، فاحتراق القطن يكون بتماس النار جريا للعادة ، اذ يجوز احتراقه دون ان تمسه نار . اما جابر فينتقد الاستدلال بجرى العادة اذ يقول « واما التعلق المأخوذ من جرى العادة فان ليس فيه علم يقين واجب اضطراري برهاني أصلا ، بل علم اقناعي يبلغ ان يكون أحرى واولى واجدر لاغير . لكن استعمال الناس له وتقلبهم فيه واستدلالهم به والعمل فى امورهم عليه اكثر من استعمالهم للتعلقين الآخرين (يقصد بذلك التعلق بالمجانسة وبالآثار) وذلك انه القياس واستقراء النظائر باستشهادها للامر المطلوب عليه . وهذا الباب يناسب البرهان ويقابله كثيرا ويدل على خلاف مايدل عليه ، وقوته وضعفه بحسب كثرة النظائر والامثال المتشابهة وقلتها ، حتى ان قوما قد ظنوا انه يمكن ان يكون هذا الباب علم برهاني يقين . وذلك اذا لم يجد في كل مايسبقه أمر واحد مخالف لما يشهد بأمر ما من الامور ونستوفى جميع هذا الباب ونقول فيه ، فأن الحاجة الى معرفة كيفية ذلك الاستدلال شديدة جداً وهذا عام لك فى هذه

الصناعة وغيرها ... وليس في هذا الباب علم يقين وواجب وانما وقع منه تعلق واستشهاد بالشاهد على الغائب لما في النفس من الظن والحسبان ، فان الامور ينبغي ان تجري على نظام ومشابهة ومماثلة . فأنك تجد اكثر الناس يجرون امورهم على هذا الحسبان والظن ويكاد ان يكون ذلك يقينا حتى انه لو حدث في يوم ما حادث لنرجو حدوث مثل ذلك الحادث بعينه في ذلك اليوم من السنة الاخرى . فان حدث ذلك اليوم بعينة مثل ذلك الحادث تأكد عندهم ذلك ان سيحدث مثله في السنة الثالثة .. حتى اذا حدث ذلك مثلا عشر مرار ، لم يشكوا البته في حدوثه في كل سنة تكون من بعد . » وبعد ان يتكلم عن تعاقب الازمان والفصول يقول في هذا الصدد « ... وانا احسب ان هذه المقدمة ليست بصحيحة فانه لايؤمن ان يكون صيف لا يعقبه خريف ولم يتقدمه ربيع .. »

لايذكر جابر في مختار الرسائل عنوانا خاصا باسم الاستدلال بالآثار ، ولكن من سياق الكلام نستشهد ان ان مايقصده هو الاستدلال بالآثار : « مثال ذلك انا نقول:

انه اذا كان يمكن ان يكون مولود الاعلى مثال ما ادركناه وشاهدناه لو كنا قد ادركنا جميع الموجودات واحاط علمنا بها . فاما ماتحن نقصر عن ذلك فانه يمكن ان يكون موجودات مخالف حكمها في اشياء حكم ما شاهدنا وعلمنا ، اذ كان التقصير عن جميع الموجودات لازما لكل واحد منا ، وبالجملة فليس لاحد ان يدعي بحق انه ليس في الغائب الا مثل ما شاهد ، او في الماضي والمستقبل الامثل مافي الآن ، اذ كان مقصراً جزئياً متناهي المدة والاحساس ... وذلك ان في العالم بلدان وامم لم يحس اهلها بالتمساح قط ، فيجب على هذا الحكم متى خبرهم مخبر انه موجود حيوان يحرك لحيته العليا عند المضغ ان يدفعوا ذلك ويمنعوه . وكذلك يوجد في العالم اناس واهل بلدان ومواضع لم يشاهدوا جذب المغناطيس الحديد ولا هرب الباغض للخل من الخل ... واشباه هذه الامور كثيرة ، يجب على هذا الكلام ان يبطل وجودها البتة من لم يشاهدها او لم يخبره مخبر انه شاهدها . واذا كان الامر كذلك امكن ان يكون حال جميع الناس في التقصير عن ادراك اشياء كثيرة في الغائب مخالفا للشاهد

كتقصير هؤلاء القوم الذين ذكرنا . فليس لاحد ان يدفع ويمنع وجود مالم يشاهد مثله بل انما ينبغي له ان يتوقف عن ذلك حتى يشهد البرهان وجوده أو عدمه .. وكذلك ينبغي اذا ذهب الدهري يمنع ان يكون العالم مكونا مصنوعا لأنه لم يشاهد ولا واحد من الناس بدء تكوينه ووضعه ان يقال له : ما تنكر ان يكون وجود الناس بعد وجود ابتداء العالم بدهر طويل وتذكر كون مدينة أو قصر ، ولا يذكر أحد من أهل بلده ابتداء بنائه . فسلم ان تثبت قدم ذلك بالعلة التي اثبت بها قدم العالم . فان قال انما علمت المدينة والقصر التي لم نشاهد ولا من توفي انباء بنائها انها مبينة من قبل اني رأيت مثلها بنى ولم أر مثل العالم مبنيا ، قيل له : ان هذا بعينه مانقول وندفع كونه في طريق الاستدلال . فمن أين قلت ووجب عندك ان كل مالم نشاهده وله مثل وشبيه موجود وان كل مالم نشاهده وليس له مثل وشبيه فليس بموجود .. اذ قد بان تقصيرك وتقصير أمثالك عن مشاهدة جميع الموجودات فامكن ان يكون اكثر الموجودات مما لم يشاهد . »

اذن ان جابرا ينتقد القياس من ناحية منطقية ، ليترك في

كل آن مجالا لقبول حقيقة جديدة ، وجعفر الصادق ينتقد القياس ايضا من ناحية دينية ، وكلاهما يلتقيان في اثبات الصانع وتذكرنا طريقتها بطريقة منهج العلوم الحديث أو المنطق التطبيقي الذي يهدف الى مطابقه الفكر للاشياء خلافا للمنطق الصوري الذي يهدف الى مطابقة الفكر لنفسه . وقد جاءت هذه الحاجة الملحة من ايجاد منطق تطبيقي لعدم المقدرة على تحقيق الوحدة والمطابقة بين العقل والواقع ، وقد كان ابطال هـذا المنطق هم أمثال « فرانسوا بيكون » و « رينه ديكارت » وغيرهم ويقول هذا الاخير ان المنطق التقليدي لم ينشىء اي اكتشاف علمي ، وفي الحقيقة اذا درسنا تراثنا لوجدنا بذور هذا المنطق او الفرق بين المنطقين، واذا استعملنا لغة اسلامية يمكننا تسميتها بالقياس الحنفي والتأمل او الاعتبار الجعفري . ولم تتقدم العلوم في العصر الحاضر الا بعد أن أخذ العلماء بمنهج المنطق التطبيقى وتركوا في كل فرصة امكانية كشوف غير معروفة من قبل . ويرجع الفضل للعرب الاقدمين فى ترك باب الاجتهاد مفتوحا على مصراعيه وهنا لا نبت بعلاقة اكيدة بين الاثنين فحسب ، بل نبرهن

بصورة واضحة ان جذر هذا المنهج هو عند الامام الصادق وعند جابر بن حيان والذى انتقل فيما بعد الى غيرهما من مفكرى العرب .

نعم اقتبس العرب (كما بينت في مقال لي في الفلسفة الطبيعية العربية) قانون فهم الطبيعة من اليونان، فقد كانوا يترددون بين المذهب الارسطاطاليسي والمذهب الافلاطوني الحديث وغيرهما من المذاهب في سبر غور الطبيعة ، كما نرى ذلك في رسائل جابر أيضا ، ولكن في طريقة سؤال الطبيعة نفسها فقد كانوا يعتمدون على الخبرة الذاتية ، فمبدأ الخبرة والتجربة ودك الفرضيات والقياسات المنطقية غير المدعمة بالمشاهدات الحسية والتداريب الواقعية وتفسير الطبيعة بالطبيعة نفسها وكشف اسرارها اعتمادا على المشاهدة والاختبار ، فقد كان للعرب فضل كبير في ذلك .

اذا كانت الفلسفة العربية او بالاحرى الاسلامية لا تختلف كثيرا عن فلسفة القرون الوسطى واذا كانت المباحث الجدلية لفلاسفة الغرب فى الازمنة المظلمة تفوق فلاسفة المشرق على رأي بعض من أشتغل في تاريخ الفلسفة (كما أدلى ويندلبند

في حججه) ،فان الطبيعية منها أو بالاحرى المعارف الايجابية في مبادئها وتطبيقاتها فاقت ما كانت عليه أوروبا في حينه . ولم يقر الغربيون المنهج الواقعي لفهم الكون الا في أزمنة متأخرة جداً .

ان بذور هذا المنهج العلمي البديع نجده في مبادىء الامام الصادق وتلميذه جابر ،اذا أمعنا فيهما النظر ودرسناهما دراسة متقنة ، لان انتقاد القياس وترك مجال الفكر الحر للاعتبار بالكون وآياته البينات مما يوسع حقل المعرفة ويفتح آفاقاً جديدة للبحث ، والتنقيب . هنا لا نجد كشفا تاريخياً هاما في علاقة جابر بن حيان بامامه جعفر الصادق فحسب ، بل نجد ان ينبوع هذا المنهج الواقعي الرائع الذي يتجلى لنا في تاريخ الفكر العربي لاول مرة على مايظهر عند يعقوب بن اسحق الكندى والفلاسفة الذين اتوا من بعده هو من مصدر الامام الصادق ايضا .

نعم ، يجب ان نبدل مفاهيمنا للتاريخ الاسلامى او بالاحرى لتاريخ تطور الفكر البشري ، لاننـــا قلما نلتفت الى تلك العوامل التى ســاعدت على فتق الفكر وتوسيع آفاقه وترك

مجال التحليق فيه . اننا نرى جليا هذه الروح ـ روح سؤال الطبيعة نفسها ،او كما يعبر عنها الامام الاعتبار باسرار الكون ـ عند كثيرين من علمائنا الاوائل ، وقلما نلتفت الى مصادر معرفتهم . اذا كان مبدأ الخبرة والتجربة ودك الفرضيات والقياسات المنطقية وتفسير الطبيعة بالطبيعة نفسها وكشف اسرارها اعتمادا على المشاهدة والاختبار هو مبدأ تجلى لنا في الكندي وابن سينا وابن الهيثم وغيرهم من الفلاسفة الاسلاميين ، فقد غاب عن بال الكثيرين ان هؤلاء الفلاسفة الذين فكوا قيود الفكر كان لهم رواد مضوا قبلهم في هذا الطريق ، ومهدوا لهم السبيل لفهم الطبيعة والتعمق في مشا كلها ، ولولا هؤلاء الرواد لتأخرت المدنية ربما قروناً . اننا ـ ولاشك ـ اقتبسنا وتعلمنا من غيرنا وكان لعلوم الاوائل والفلسفة اليونانية نصيب كبير في نشاطنا وانعاشنا ، ولكن لولا توجيهات هامة من قبل ائمة أفاضل لما سارت العلوم في هذا الطريق بهذه التأملات العميقة فلجعفر الصادق الفضل الاكبر بالتأثير على جابر سواء كان ذلك مباشرة او غير مباشرة ، وان البحث والتحري سوف يكشف

لنا حقائق جديدة كنا عنها غافلين .

ان الروح الجعفرية التى نراها مسيطرة في رسائل جابر تود ابقاء فراغ كبير للموجودات غير المشاهدة لتترك مجالا للتمحيص والتعمق . ان مثل هذه الشخصية خدمت المدنيـــة الاسلامية وساهمت في الرقي البشري ، فساعدت على تقدم العلوم وايجاد منهج يعتمد على الواقع ، لان القياس لا يكشف الحقائق ولا يفي بالحاجة المطلوبة . واذا كانت هناك مجار ظاهرية أحدثت التطور في العلوم ، فهناك مجار خفية كونت تلك الينابيع ولولاها لما فاضت مياه الحضارة امام اعيننا

نتيجة البحث

من الابحاث المتقدمة نستدل انه يوجـد لجابر ناحيتان ناحية كيميائية تجريبية وناحية فكرية فلسفية ، فالعلاقة كما يتضح لنا هي من الناحية الثانية لا الاولى ، لاننا لا نجـــد في هذه الاخيرة اي اثر لجعفر ، وان اقسم بامامه بصدق دعواه ، وقد اوضح جابر نفسه هذه الناحية في الرسائل المنوه عنها وذلك في كتاب الراهب ، لانه يقول انه ينسب كل علم

الى صاحبه اذ كان مخصوصاً به ، ويصرح ايضاً : « ولولا ان علومي وعلوم سيدي عليه السلام ممتزجة غير متميزة لما كانت كتبي هذه المنسوبة اليه جارية على غير الحكاية عنه ولكن صرت بما اودعني من العلم مشتقاً منه كالابن من الاب مضافا اليه كالنصف من الضعف ، وامثال هذه لم يكن فرق بين ما اورده من علمي وما اخذته عنه وسمعته منه اذا كان الكل واحداً في المعنى .. ولما كان هذا الراهب مختصاً بهذا الوجه من التدبير ولم أسمعه من غيره على هذه الصفة قبله حتى لقد شككت شكا خفت ان يخرجني الى التهمة لسيدي ... » ، ويرى ايضاً في هذا الباب انه لم يخرج من علم جعفر شيء في المعنى ، لانه يرى ان علمه محيط بكل شيء ، بيد انه ثبت لديه ان مثل هذه التدابير اي التفاعلات التجريبية البحتة هي من ميزات غيره (١) ومما يزيد اندهاشنا ان جابراً كأحد رواد

---

(١) ان في هذه الفكرة تناقضاً ظاهراً لجابر يقول : « ولكن صرت بما اودعني من العلم .. الخ ثم يصرح بعد ذلك بان علم الامام الصادق عليه السلام محيط بكل شيء .. الخ فبعد هذه التصريحات التي نقرأ فيها الاقرار بان جميع علومه مستمدة من الامام فما الداعي لتكذيب =

علماء العرب قطع خطوة ابعد مما قطع اليونان في وضع التجربة اساس العمل ، لا اعتماداً على التأمل الساكن ، ولعله اسبق عالم عربي في هذا المضمار ، فنراه يقول : « وملاك هذه الصنعة العمل ، فمن لم يعمل ولم يجرب لم يظفر بشيء ابداً » وفى محل آخر يقول : « ان الاصل كان من الطبائع لا من غيرها ، فالوصول الى معرفتها ميزانها ، فمن عرف ميزانها عرف كل ما فيها ، وكيف تركبت ، والدربة تخرج ذلك ، فمن كان دربا كان عالماً حقا ، ومن لم يكن دربا لم يكن عالما . وحسبك بالدربة في جميع الصنائع ، ان الصانع الدرب يحذق وغير الدرب يعطل . »

اما ماله علاقة بالاكسير واكتشاف سر الله الاعظم فله علاقة بالامام جعفر وعلاقة شديدة : وقد حدا بي الى الاعتقاد بان هذا الاكسير هو الراديوم نفسه او احد الاجسام المشعة نظراً لنص قرأته عند البيروني العالم الاسلامي الكبير في

جابر بعد ان يقسم بامامه ـ وهو قسم عظيم ـ وما الداعى للتردد والتهكن مقابل نص صريح اذا كنا معتقدين بان رسائل جابر صحيحة وغير منتحلة .

« حديث الشهر »

الطبيعة ، كما بينت ذلك في حديث اذاعه راديو لندن (١٧ نيسان ١٩٤٥) ونشرته مجلة المستمع العربي (سنة ٦ عدد ٦) بعنوان « الراديوم وعلماء العرب »

مما يزيد اعجابنا ادعاء جابر بان هذا السر له دخل في جميع الاعمال . وانا اذا امعنا النظر في الوقت الحاضر لوجدنا ان اكتشاف الاجسام المشعة التي تؤدي الى قلب عنصر المادة وتحطيم الذرة التي لم يكن من نتائجها القنبلة الذرية فحسب بل ايجاد منابع قوى جديدة لم تكن لتطرق على بال انسان.

من اغرب ما يذكره جابر تأثير الطلسمات ، والقصد منها تأثير الكواكب على المادة ، وقد بينا علاقتها بالامام ، ويمكننا تفسيرها في الوقت الحاضر من وجهتين : (١) الاشعاعات البعيدة ، (٢) القرابة بين العالم العلوي والعالم السفلي ، واننا لنجد هذه القرابة في الوقت الحاضر حسبما ثبت للعلماء الذريين بالشبه الموجود بين الذرة غير المرئية والعالم الشمسي الكبير .

مما سبق يتبين لنا ان جابراً يعتقد بوجود طريقين لادراك الصنعة : طريق ظاهري وذلك باقتفاء اثر الطبيعة والتداريب ،

وطريق باطني وذلك بمعرفة الفرضيات الكبرى وتطهير النفس البشرية ، وان ما استقاه من معلمه الروحي الطريق الثاني ، لانه نظراً للوثائق التي وصلت الينا هناك تجارب قام بها جابر في عالم الكيمياء لم ينته الاخصائيون من دراستها بعد ، وفرضيات كبرى قد ادرجها في رسائله . واذا كان الاخصائيون يجهلون مصادر معلوماته عن العمليات الكيميائية الايجابية (بعد تقرير المنتحل والاصلي) فانه لمن الواضح الجلي ان من اهم مصادر معرفته الالهامات الباطنية التي اقتبسها عن امامه جعفر الصادق ، وهي سوف تحتل مكانا ساميا في تاريخ الفكر البشري يوم تدرس بامعان من قبل اخصائيين كرسوا حياتهم في سبيل كشف الغطاء عن غوامضها .

اما سبب الاخفاق الذي بلي به الباحثون حتى اليوم ، لعدم تفريقهم بين منابع معرفة جابر في المعلومات الايجابية وبين التأملات الكونية العامة . فاذا كان بعيداً كون جعفر معلم التجارب في الكيمياء ، فهو ولا شك ملهم النظرات العالمية العميقة ونافخ روح التجارب والاعتماد على المشاهدة والاختبار ، والا ما هو سر التطابق بين نزعة الامام الباطنية

ونزعة جابر ، وهدف الاثنين في تقديس العمل والمشاهدات الحسية للولوج منها الى ادراك سر الله الاعظم . ويمكننا الذهاب ابعد من ذلك فنقول ، حتى اننا لو سلمنا جدلا بان كتب جابر هي منتحلة او هي ليست لمؤلف واحد بل لعدة مؤلفين ، كما حاول اثبات ذلك كل من « روسكا » و « كراوس » ، فالدلائل لا تزال قوية في اقتباس منهج الفرضيات الكبرى من هذه الموسوعة المنسوبة لجابر عن جعفر الصادق، والا لما وردت رسائل جابر عن الامام في معرض الحديث عن الامر الثاني الذي بيناه ، هذا وان لم يرد ذكره في التقطير والتصعيد والتكليس او عند ذكر الاحجار والمعادن او غير ذلك ، حتى ولا عند حد الكيمياء التي يقول عنها اظهار ليس في ايس ، فليس في عرفه العدم ، وايس الوجود ، اي الانتقال من العدم الى الوجود ، او اعطاء الاجسام اصباغا لم تكن لها (وهذه الفكرة تذكرنا بفكرة التغيرات الجوهرية للمادة الحديثة، بل ورد ذكره بما له علاقة بالروح . واذا كان ذلك من قبل الصدف والاتفاق ، فلماذا كان الاتفاق بالمعنويات التي لها صلة قوية بجعفر ولم يكن هناك

اتفاق بالماديات ؟

اما اثبات اكثر الافكار التي وردت في رسائل جابر موجودة في الاسماعيلية فلا يقيم لنا البرهان على عدم وجودها عند الامام الصادق نفسه ، بل بالعكس فان ماتواتر عنه يتفق في كثير من الوجوه بما تواتر عن جابر او ماذكره جابر عن امامه كمصدر ثقة ، فالامام جعفر على مايظهر معلم جابر هذه الامور العلوية وامامه وشيخه وموجهه وراشده وناصحه وعلى وجود عدد لايستهان به من فلاسفة اليونان في كتب جابر ، فلا يمنع ان يكون الامام قد حبذ هذه الدراسات لأن الحكمة ضالة المؤمن اينما وجدها التقطها .

من الجدير بالذكر ان نبين مايورده جابر عن الصلة التي يجب ان تكون بين الاستاذ والتلميذ في كتاب البحث من من مختار رسائله :

« فاما ما يجب للاستاذ على التلميذ فهو ان يكون التلميذ لينا قبولا لجميع اقاويله من جميع جوانبه لا يعترف عليه في امر من الامور وان كان كافيا متصورا للامر ، فان ذخائر الاستاذ العالم ليس يظهرها للتلميذ الا عند السكون اليه

والاتحاد له غاية الاتحاد . ذلك ان منزلة الاستاذ منزلة العلم نفسه..» وفي مثل هذه المواضع لا يستشهد بالامام بل بالفلاسفة اليونانيين امثال افلاطون وارسطوطاليس : « فقد قال ارسطوطاليس في المواضع التي حث الناس فيها على طلب العلم : انه ينبغي للانسان ان لا يتوانى في طلب الادب ما استطاع ، فبذلك الادب تصير له حقيقة معنى الانسانية وجوهرها وخواصها الكاملة ، اذ كان البغض شاملا للناس ، فانه ليس كل الناس يولدون على مثال افلاطون من الكمال وقول الحق من ذاته بغير تعليم والعمل به » ولعل ذكره لافلاطون وارسطو كممثلين لنزعتين مختلفتين : نزعة الباطن للاول ونزعة الظاهر للثاني .

اذن ان جابرا يفرق بين الظاهر والباطن ، لكن المعول عنده على الباطن لأنه الجوهري . على ذكر الولوج في العمق نجد في رسائل جابر معلومات قد سبقت عصره بقرون ، من ذلك تلك الفكرة الهائلة التي ايدتها التجارب اليوم من ان الجوهر البسيط يشبه العالم الشمسي والذي ذكر لنا عبدالوهاب عزام عن الشعراء الصوفية قولهم : « كل قلب لذرة

تشقه تجد فيه شمساً » فنجد جابرا يذكر ذلك اعتمادا على ثقافته الباطنية التي استقاها من امامه (نقلا عن مختار رسائل) :

« فاما الجوهر - عافاك الله - فهو الشيء المملوء الخلل ، وهو المشكل بكل صورة ، وفيه كل شيء ... فاذا وقفت عليه الشمس انقدح وظهر - فينبغي ان تعلم ان ذلك هو نفس جرم الفلك المنير الاعظم - سبحان خالقه وتقدست اسماؤه . » وفي المقارنة بين العالم الصغير والعالم الكبير يقول : « ان العالم كائن من النار والارض » وفي موضع آخر « من الشمس والمركز » .

يضيق بنا المجال ان نلم بجميع التأملات العميقة التي تذكرنا بالنظريات الحديثة والتي كان لجعفر دخل كبير على ما يظهر في ايجادها . ويتفق تعليلنا لمنبعي المعرفة عند الأئمة ماروى عن الامام علي نقلا عن الغزالي في احيائه : « العقل عقلان فطبوع ومسموع ، ولا ينفع مسموع اذا لم يكن مطبوع ، كما لاتنفع الشمس وضياء العين ممنوع » . فبجانب المنابع الظاهرية اذن منابع باطنية عن طريق النور الالهي الكامن في اعماق النفس البشرية .

انه لمن دواعي الاسف ان لا نعرف عن التيارات الاسلامية المخالفة لعقيدة السنة الا شيئاً قليلا . واذا كان يرى مؤلف كتاب العقل في الاسلام كريم عزقول : « ان التراث الاسلامي ليس بتراث طائفي انما هو تراث قومي عام لجميع ابناء الامة ، لأن الحضارة الاسلامية هي جزء من التراث القومي العام لجميع ابناء كل امة من الامم العربية ، ومثل ذلك ايضاً الحضـــارة المسيحية ، وهكذا فالاسلام والمسيحية اللذان يشكلان طائفياً عاملا للتفرقة بين طوائف الامة الواحدة ، يصبحان على ضوء النظرية القومية اولا : عاملا للتوحيد بين ابناء تلك الفئات الذين يجدون فيها جزئين هامين من تراثهم القومي المشترك وثانياً : عاملا للتقارب بين الامم العربية التي لم تتوحد في حضارتها الا مذ انتشر فيها تتابعاً كل من المسيحية والاسلام . » فما احرانا ان نتتبع جميع التيارات الاسلاميـة المختلفة ونعرف حقاً الحركة الباطنية ، لا في الدراسات السطحية ولا في الحركات السياسية ، بل بالدور الذي ساهمت فيه تلك الحركة في تقدم العـــلوم والمعارف . ويكفي لتبوء الحركة الباطنية الصدارة في الحظوة

العلمية الاسلامية انها اوجدت رسائل جابر ورسائل اخوان الصفاء (١) .

كذلك يجب علينا ان لا ننسى بأن لمثل هذه الحركة صوفية خاصة تختلف عن الصوفية المعروفة ، فاذا كانت الحركة الصوفيـــة السنية تعتمد على القلب فقط ، وتزهد الناس في كسب العيش ، فالصوفية الثانية التي تتجلى لنا في صورة بطلها جعفر الصادق تود الاعتبار في آيات الـكون وعدم غمض الأعين عن الواقع مع الحث على كسب العيش . ومن الغريب ان الـكتب التى تتحدث عن الصوفية الاسلامية تنقص قدر هذا التيار الذي يمت بصـلة قوية للامام علي . ويعتقد محمد حميدالدين استاذ الحقوق الدولية الاسلامية في جامعة حيدر آباد ـ الهند : « ان جميع الأفكار للمدارس الصوفية مثل القادرية والسهروردية وغيرها تتلقى سلطتها من النبي عن طريق الامام علي مبـــاشرة دون وجود واسطة

(١) ان الباطنية التي يقصدها الدكتور هنا ـ فيما نعتقد ـ وفي كل مكان اتت فيه هـــذه الـكلمة هى معرفة الفرضيات الـكبرى وتطهير النفس البشرية . أو ماتؤدي اليه كلمة « روحية » وهي تختلف اختلافاً بيناً عن الباطنية المعروفة في بعض المذاهب والطرق الصوفية وغيرها .

« حديث الشهر »

اخرى » كما بين ذلك في مقال له باللغة الانكليزية عن مفهوم الدولة في القرآن . وعلى هذه الدعوى تكون الحركة الصوفية جميعها من منبع واحد ، وبعد ذلك افترقت وشكلت تياراً آخر . ولمعرفة المصادر من الضروري الاهتمام بالرسائل المروية عن الامام جعفر ومقارنتها ومناقشتها مناقشة علمية صحيحة . فالروايات تذكر حسن البصري وتأثيره المباشر على الصوفية ولكنها لاتذكر عن الامام شيئاً ، ولا عن مدرسة له شبه سقراطية في المدينة . ومن الضروري ان يعاني المسلمون ماعاناه الغربيون من الجهد في استخراج مذهب سقراط على جليته من شهادات تلاميذه ، فيستخرجون مذهب جعفر(١) أيضا من الكتب المروية عنه ومن اقوال مريديه على ضوء العلم الحديث ، لسد فراغ كبير في تاريخ الفكر الاسلامى . عندئذ نطلع على الدور الحقيقى الذي لعبته تلك الحركة فى انتشار العلوم.

---

(١) نظن انه لايخفى على الدكتور بان الشيعة الامامية الاثنا عشرية وهم يكونون اكثر من الثلث من مجموع المسلمين يتبعون مذهب الامام جعفر الصادق وتعاليمه . ولعله قد وجه نداءه هذا الى بقية الفرق الاسلامية التي انصرفت انصرافاً تاما عن البحث والاستقراء في مذهب الامام (ع) ليستفيدوا من تعاليمه وتوجيهاته . (حديث الشهر)

من اجل ما بيناه فلا غرابة ان يذكر مسلمة المجريطي في رتبة الحكيم انه انتقل علم الباطن الى رجل يقال له جعفر الصادق ، وهو من آل علي عليه السلام ، وهو استاذ جابر بن حيان الكوفي الطوسي وقيل الطرطوسي الاصل المتوفي سنة ١٦٠ هـ . وقد أخذ حكمته عن جعفر واورد ذلك شعرا :

حكمة اورثناها جابر عن امام صادق الوعد حفي
بوصي طاب من تربته فهو كالمسك تراب نجفي

حقاً ان شخصيه جعفر الصادق لاتزال غامضة تحتاج الى من يكشف كنهها من المؤرخين ، لا لأهميتها في تاريخ الفكر الاسلامي وتاريخ تطور الفكر البشري فحسب ، لأن تاريخ العلوم يتطلب من يجلو كنهها لوجودها على مفترق الطرق لمعاصرتها لعبقريات فذة أوجدت كل منها مدرسة خاصة في الاسلام ، كان لها تأثير متباين في التيارات الفكرية الاسلامية المختلفة كالمعتزلة والصوفية والحركات الباطنية وغير ذلك عدا عن مناهج العلوم الكونية المستمدة في توجيهها من الروح الاسلاميـــة والفلسفة اليونانية ، ومادام يكتنف مثل هذه الشخصية الفذة الظلام ، فكثير من الحقائق ستظل في طي

الخفاء ، وسنظل في جهل مدقع في فهم كثير من قيمة تراثنا الفكري لأن التعصب الذميم هو الذي طمس المعالم ووضع امامنا سدا حائلا دون تفهم كنه الاساسات العميقة في بناء الحضارة العالمي . وهكذا مزقنا ضيق الصدر وعدم فتح عقولنا لادراك الاشياء كما هي الى شيع وفرق متضاربة متطاحنة « كل حزب بما لديهم فرحون » محكومين بعمى البصيرة عن الوجهات المختلفة التي شيدت بناء المجد الشامخ « انها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور »

نعم ، نحن لا نريد ان نستسلم استسلاما نعطل فيه النقد واعمال الفكر والروية ، بل نود أيضا ان نراعي الامانة العلمية فعدم مراعاتها جريمة على العلم والقومية في آن واحد واذا لم نجعل في اذاننا وقرا عن سماع الحق اتضح ان مدنيتنا العريقة هي ذات سبل مختلفة ومناهج متباينة ، يجب علينا ان نعطي لكل واحد منها حق الوجود . واذا افتخرت المدنية الاوربية بالثقافة الانسانية للاوائل ، واعنى بها اليونانية واللاتينية ؛ فيجب علينا ان نفتخر بالنزعة الانسانية الكائنة في التيار الباطنى الاسلامي الذي لم يدرس على ما اعتقد

الدراسة الكافية ، والذي يتجلى لنا عند المناسبة الطيبة بين جابر ومعلمه الامام جعفر . ولا يقف هذا التيار الانساني بمعناه الباطني العميق عند الامام الصادق بل يتعداه الى الائمة الذين سبقوه كمحمد الباقر وزين العابدين والامام علي نفسه الذي ينسب اليه القول المأثور :

أتحسب انك جرم صغير وفيك انطوى العالم

في هـذا نداء الاعماق الحقيقي وصرخة داوية لايقاظ رسالة الانسان الشاملة في معانيها الرفيعة ومثلهـا العليـا ومطاليبها السامية ، من علو لانخفاض ، انسجام محكم الى تناقض ممزق ، ومن تآلف موصل الى تباين هدام . فيه جعل الانسان محور القيم وتفسير معالم الكون من وجهة انسانية

بهذه الروح كان يستمد جابر قوته من جعفر ، وبهذه الروح جرى تيار خاص ، فلما فهمناه الفهم التام ، نظرنا اليه في دور احتضاره وفنائه ، لا في دور نشوئه وارتقائه ، فلوينا وجهنا عنه ، ظنا منا اننا نفر من بيت قد تداعي ومن أساس تدهور وقد غرب عن بالنا ان مثل هذه النزعة الانسانية في جوهرها خالدة ابد الآبدين ودهر الداهرين . واننـا اذا تعمقنا بها

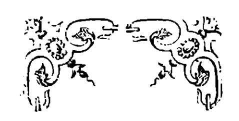
في عصرنا الحاضر ، تجلت لنا حقائق جديدة كنا عنها غافلين وفهمنا آيات الكون بنفس متعظة معتبرة .

اننا ندرس في العلوم (كما كنت بينت في حديث لي بعنوان خاطرات بين العلم والادب) النتائج العلميـــة فقط . ونغمض اعيننا عن التيارات الادبية العميقة والشروط النفسية التي بعثت الكشوف العلمية من مرقدها ، اننا نتمتع بالخيرات العميقة التي وهبتها لنا نفس مبتكرة في العلم ، دون ان نلتفت الى العوامل الخفية التي بعثت بهذا الابتكار . انه وايم الحق لجحود للمعروف ونكران للمعرفة والاستفادة من العبقريات العلمية دون الالتفات الى العوامل النفسيه التي كونت هذه العبقريات . ولعل في دراستنا للشروط النفسية قدرة لنا على ايجاد نفس مبتكرة خلاقة . فاذا لم يأخذ جابر من جعفر التجارب مباشرة ، فلقد تلقن منه الطمأنينة النفسية والاستقرار الباطني عن طريق الاطلاع على سر الله الاعظم في قوانينه الكونية معجز المعجزات . واي معجزة في الكون اعظم من معجزة الطبيعة نفسها التي لا نرى فيها الا شيئاً عادياً . اوليس هذا المخلوق المكون من اللحم والدم الذي يحاول ان

ان يدرك الكون برحيب اتساعه هو من اعاجيب الخليقة ؟ اوليست محاولة جابر معرفة التكون الذاتي هي للاطلاع على سر الخليقـــة وعلى اعظم معجزة في الكون ؟ وهي ليست بعيدة عنا وانما في انفسنا هذه الجاذبية المغناطيسية القوية نحو الطبيعة في قوانينها الخالدة وسننها الازلية ، قد غرسها جعفر في قلب جابر ، فولد فيه العشق نحو العلم وجعله من العباقرة الخالدين . ولولا هذا العشق لما وجدنا هذا الانتاج الضخم الذي تطأطيء له رؤوس كبار العلماء ، او كما نقل لنا عبدالوهاب عزام عن الشاعر العطار :

فان تقرأ علوم الناس الفا بلا عشق فما حصلت حرفا

على هذا الاساس يجب علينا ان نفهم العلاقة بين جابر وامامه وان نقوم في دراسة هذا التيار الباطنى وان نتخذه كعون لنا في اعطاء مغزى للكشوف العصرية .



المصادر

من المتعذر ذكر جميع المصادر التي ساهمت في تحرير هذه الرسالة ، وسنقتصر على المهم منها :

المصادر العربية :

١ : مختار رسائل جابر بن حيان ، عني بتصحيحها ونشرها « ب كراوس » ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ .

٢ : كتاب الخواص لجابر (مخطوط) المكتبة التيمورية القاهرة ، فرع حكمة رقم ٣٨ ، نسخة فوطوفرافية ، برلين .

٣ : كتاب السموم لجابر (مخطوط) المكتبة التيمورية ، القاهرة ، فرع طب رقم ١٠٥٣ نسخة فوطوغرافية ، برلين .

٤ : مصنفات علم الكيمياء للحكيم جابر بن حيان الصوفي ، نشر هولميارد باريس ١٩٢٨ .

٥ : اعيان الشيعة للسيد محسن الامين الحسيني العاملي ، دمشق ١٩٣٦ ج ٤ ، ١٩٤٠ ج ١٥ (بحث جعفر وجابر)

٦ : عقيدة الشيعة ، تأليف « دوايت م . رونلدسن » القاهرة ١٩٣٣ ، بحث جعفر الصادق .

٧ : اشعة من حياة الصادق ، النجف الاشرف ، رجب ١٣٦٨ هـ

٨ : من تاريخ الالحاد في الاسلام ، عبدالرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٤٥ .

٩ : ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء في طبقات الاطباء ، القاهرة ١٨٧٤ .

١٠ : تاريخ الحكماء لابن القفطي « نشر ليبرت » لايبزيغ ١٩٠٣ .

١١ : كتاب الفهرست لابن النديم نشر « فلوغل » لايبزيغ ١٨٧١ - ١٨٧٢ .

١٢ : وفيات الاعيان لابن خلكان ، بولاق ١٢٧٥ هـ .

١٣ : ارشاد الاريب الى معنى الاديب ، ياقوت الحموي ، لندن ١٩٢٣ - ١٩٣٦ .

١٤ : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ، تأليف مصطفي عبدالرزاق ، القاهرة ١٩٤٤ .

١٥ : التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، عبدالرحمن

بدوي ، القاهرة ١٩٤٠ .
١٦ : تاريخ الفلسفة في الاسلام ، « ج دى بور » نقله الى العربية محمد عبدالهادي ابو ريدة ، القاهرة ١٩٣٨ .
١٧ : رسائل اخوان الصفاء ، القاهرة ١٩٢٨ .
١٨ : احياء علوم الدين للغزالي ، الطبعة القديمة .
١٩ : العقل في الاسلام ، كريم عزقول ، بيروت ١٩٤٦ .
٢٠ : تاريخ الفكر العربي ، اسماعيل مظهر ، القاهرة ١٩٢٨ (بحث جابر) .
٢١ : التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق ، زكي مبارك القاهرة ١٩٣٨ .
٢٢ : التصوف الاسلامي العربي ، عبـــدالطيف طيباوي ، القاهرة ١٩٢٨ .
٢٣ : التصوف فريد الدين العطـــار ، عبد الوهاب عزام ، القاهرة ١٩٤٥
٢٤ : الجاحظ كتاب الحيوان ، القاهرة ١٣٢٣ـ١٣٢٥ هـ .
٢٥ : قصص العلماء والمخترعين للبرقوقي ، القاهرة ١٩٤٠
٢٦ : لافوازيه ، عبدالحميد يونس وعبـــدالعزيز امين ،

القاهرة ١٩٤٣

٢٧ : محمد يحيى الهاشمي ، العلوم الطبيعية عند اخوان الصفاء
مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق تشرين الاول ١٩٣٢

٢٨ : محمد يحيى الهاشمي ، المنابع اليونانية للطبيعيات العربية
الحديث ، كانون الثاني ، شباط ، آذار ١٩٤٣

٢٩ : محمد يحيى الهاشمي ، الاكسير على ضوء العلم الحديث
الاديب ، شباط ١٩٤٤

٣٠ : محمد يحيى الهاشمي، نظرة الكون في القرآن ، الجامعة
الاسلامية ، حلب تشرين الاول ١٩٣٩

٣١ : محمد يحيى الهاشمي ، الاطباء النصارى في العصر العباسي
الضاد ، حلب من ايار ١٩٤٨ حتى شباط ١٩٤٩

٣٢ : محمد يحيى الهاشمي ، في الفلسفة الطبيعية العربية ،
الاديب ، تشرين الثاني ١٩٤٥

٣٣ : محمد يحيى الهاشمي ، اعجوبة الراديوم وعلماء العرب ،
المستمع العربي ، سنة ٣ عدد ٦

٣٤ : محمد يحيى الهاشمي ، الكندي فيلسوف العرب والعالم
الطبيعي الفذ ، الادب والفن ، لندن ، ١٩٤٥ ، ج ٣

سنة ٣

٣٥ : محمد يحيى الهاشمي، خاطرات بين العلم والادب ، الحديث حزيران ١٩٤٩

٣٦ : محمد يحيى الهاشمي ، نبوءات المتصوفة في الطبيعيات العربية ، العرفان ، صيدا ، كانون الثاني ١٩٤٩

٣٧ : محمد يحيى الهاشمي ، محمد المعلم الاكبر ، العرفان ـ صيدا آذار ١٩٤٦

المصادر الافرنجية :

1. Eric John Holmyard, Makers of Chemistry Oxford 1931
2. Albert Stange, Die Zeitalter der Chimie Leipzig 1908
3. Bertholet, La Chimie au moyen age, Paris 1893
4. Bertholet, La revolution Chimique, Paris 1890
5. E. Wiedemann Beitrage zur Geschichte der Naturwissenschafte
6. Erlangen 1902-1927

7. Brockelmann, Geschichte der arabischen Literatur, Weimar-Berlin1898-19 2
8. Bertholet, Les origine de Al chimie, Paris, 1885.
9. E. von Lippmann, Entstehung und Ausbereitung der Al chemie Berlin 1919
10. Julius Ruska, Die bisherigen Versuche der Dschabirprobleme zu loesen III. Jahresbericht Berlin 1930
11. J. Ruska Quelques Problmes de Literature Al chimiste 7me anne 1931, Instiut Adrien Gubhard Severine (Suisse)
12. J. Ruska, Arabische Al chemisten, II. Dschafar al-Sadik, der sechste Imam, Heidelberg, 1924
13. Paul Kraus, Dschabir ibn Hajjan und die Ismailijja, II. Jahresber.
14. Husain Hamadani, Rasail Ikhwan as-Safa in the Literatur of the Ismail
15. Tabi Dawat, Der Islam Berlin 1932
16. Muhammed Hamidullah, The Quranic

Conception of State The Quranic world, Hyderabad Dn. yanuery April 1936

17. Oswald Spengler. Der Untergang des Abendlanes, Muenchen, 1927
18. W. Windelband, Lehrbuch der Geschichte der Philosophie, Tuebingen 35.
19 Alexander von Humboldt, Kosmos, I. II., Stuttgart 1844.
20. Joseph Hell Die Kultur der Araber, Leipzig 1911
21. K. A. Hofmann, Lehrbuch der Anorganischen Chimie Braunschweig 1922, (Vorwort)
22. Mohammed Jahia Haschmi, Die Quellen des Steinbuches des Beruni, Bonn 1935
23. Mohammed Jahia Haschmi, Die Geschichte der arabischen Mineralogie, ueberreicht an die Preussische Akademie der Wissenschaften 1939 Manuskript)
24. Mohammed Jahia Haschmi, Wer War Mohammed, Berlin 1936

الفهرست

حديث الشهر

سلسلة تربط بين الماضي والحاضر وتمزج بين القديم والحديث .

» كتب شهرية تعالج شتى المواضيع بأقلام حرة تمثل الأدب الحي الرفيع والرأي المجرد الحر .

يصدرها

عبد الأمير السبيتي

باشراف

جماعة من أعلام المفكرين

الثمن ٨٠ فلساً في العراق

١٠٠ » أو مايعادلها في الخارج

جميع المراجعات مع

عبد الأمير السبيتي ـ الكاظمية . العراق